المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السابع بعد المائة

١ اغسطس سنة ١٩٤٥ ٢٢ شعبان سنة ١٣٦٤

العلم والفلسفة

فى عدد واحد

أسلوب العلم

كان غرض رجال العلم الى مستهل هذا القرن ، أن يكشفوا نواميس الطبيعة العامة . وكان اسلوبهم أن يجرّبوا التجارب المحكمة المضبوطة وان يراقبوا نتائجها ، فاذا أعيدت التجارب في نفس الأحوال التي أحاطت بها حين أجريت اولاً ، وأفضت الى النتائج نفسها ، اتخذت تلك النتائج ، على انها حقيقة علمية .

وكان العالم ، يستند الى نتائج تجاربه ، أو الى علم من سبقه في وضع نظرية أو تعليل لتلك النتائج . وقد يكون التعليل في مبدإ الأمر ، « فرضاً » او «حزراً» ، ثم يمضي في امتحان فرضه او حزره بتجارب أخرى . فاذا خاص من ذلك الى نظرية ترضيه وتتفق معها جميع الحقائق المعروفة ، حكم بأنه وصل إلى حل المشكلة التي يبحثها-اي ادرك الغرض من بحثه الخاص

والنظرية الصالحة ، هي النظرية التي لا تقتصر على تعليل الحقائق المعروفة وحسب ، بل تنطوي أيضاً على تمكين العالم من استكشاف المجهول أو جانب يسير منه ، أو معرفة النتائج التي قد تسفر عنها تجارب جديدة لم تجرب بعدُ . والفائدة الأولى التي تجنى من نظرية صالحة هي هذا : تمكينها العالم ان يتكهن بنتائج تسفر عنها تجارب لم تزل في طيّ الغيب. وما علينا إلاّ أن نلقي نظرة على مآثر نيوتن العظيمة وكيف مكنت أقطاب الطبيعة الرياضية ، من تطبيق

نواميس الحركة التي كشفها نيوتن، على الأجرام السماوية، وكيف أقنعهم هذا التطبيق بأن جميع الظواهر الطبيعية مربوطة بعضها ربطاً محكماً برباط العلة والمعلول. فاذا عرفت سرعة الأجرام السماوية ومواقعها وكتلها، ففي وسع العالم أن يحكم حكماً دقيقاً أين يكون موقعها في أي زمن في المستقبل. ففكرة «السببية» أو «العلة والمعلول» ما فتئت مغروسة في أذهان الناس منذ عهد بعيد. وليس ما يحمله المجرم من تبعة أعماله، ولا الايمان بقيمة التعليم والتربية ولا الكثير من الألفاظ في شتى اللغات، سوى نواحٍ من دليل راسخ على ايماننا بالعلة والمعلول. وكل العلم المأثور عن القرن التاسع عشر كان الى مستهل هذا القرن، مؤيداً لفكرة «السببية» في فهم الظواهر الطبيعية.

وأما الفلاسفة الذين يتخذون لفكرهم ميادين شتى غير ميدان العلم، فكانوا مختلفين رأياً ومنهم من ذهب إلى أبعد حد، في قوله ان كل شيء قد أرسي على وضع لا يتبدَّل منذ كان الكون، وان الاختيار وحرية الارادة أمرٌ مستحيل. وذهب بعضهم إلى أن صلة العلة والمعلول بين الظواهر والأشياء، ليست إلاَّ وهماً من الأوهام.

وقد كان ميدان العلم في نظر علماء القرن التاسع عشر، ميداناً غير محدود. وكان من العلماء من يرى أنه اذا بلغ علم الرجل بظواهر الطبيعة الكونية والبشرية مبلغ الكمال، ففي وسعه أن يحكم حكماً دقيقاً، حتى على مستقبل شؤون الناس. وقد قال امبير — مثلا — انه اذا علمنا مواقع جميع الذرات في الكون وسرعة كل منها، كان في وسعنا — من الوجهة النظرية — ان نعلم مستقبل الكون قاطبة. ولكن تحقيق ذلك من الوجهة العملية مستحيل، لأننا عاجزون عن ان نظفر بهذه المعرفة الكاملة الشاملة، وليس في الزمن متسع للقيام بكل العمليات الرياضية التي يقتضيها مثل هذا التكهن.

المعادلة نموذج

ولم يلبث العلماء حتى أخرجوا للناس نظرية الحركة في الغازات وبمقتضاها تتحرك جزيئات الغاز حركة سريعة، ويصدم بعضها بعضاً على الدوام. وقد وجدوا أنهم يستطيعون أن يدركوا «تصرف» الغاز اذا بنوا تقديرهم على معدل حركة جزيئاته، ولم يكن يهمهم الحركة الخاصة بجزيء مفرد بل كان يهمّهم معدل حركة عدد وفير من الجزيئات، أي أدركوا ما للاحصاء من قيمة في العلم الطبيعي، لا تختلف عن قيمته في شركات التأمين.

والنظريات العلمية تفرغ عادةً في قالب نموذج نستطيع أن نتصوره. والعالم لا يعمد على الغالب الى التفكير في هذا الجهاز الضخم المعقد الذي هو الكون، بل يختار من عناصره ما هو

أدنى إلى عنايته، ويحصر ذهنه فيه. ومن هنا ما عمد اليه الكيميائي — مثلاً — من وضع النظرية الذرية، فقال ان كل المادة في الكون مؤلفة من ذرات أنواعها متعددة كتعدد العناصر. وكان الرأي أنها كرات صغيرة، ولكن لم يعنَ أحد بالقول في المادة التي تتألف منها هذه الكرات. فلما خرجت النظرية التالية، القائمة على أن الذرات مؤلفة من كهيربات سالبة الشحنة، ونوى موجبة الشحنة، لم يجد الكيميائي، في هذا التطور شيئاً يلزمه أن يغير رأيه الاول، لانه في الدائرة الخاصة التي يعنى بها، لم يكن تركيب الذرة نفسها شيئاً يحتاج الى معرفته.

وإننا لنرى المدرّسين في كثير من المدارس يطلبون إلى الصغار من تلاميذهم أن يصنعوا نماذج للطائرات. ويجب أن تكون هذه النماذج، مطابقة في شكلها العام، لأصناف الطائرات المعروفة، حتى يتسنى لمن يرى النموذج، أن يتبيَّن الطائرة التي يمثلها، ان كان يعرف تلك الطائرة. وليس يهمّ الصغير ولا الكبير، أن يكون النموذج من خشب أو ورق مقوًّى أو غير ذلك.

ومعظم النماذج التي يصنعها العلماء لأغراضهم العلمية، هي نماذج ذهنية أو صور عقلية. فلما وضع ماكسويل النظرية الكهربية المغنطيسية ليفسر بها خواص الضوء، فكّر في وسط تعبرهُ هذه الأمواج الكهربية المغنطيسية. فدعى الوسط «الأثير». وكان الرأي أن خواصّهُ كخواص الجسم الصلب المرن. والباعث على صنع هذا «النموذج» الذهني للأثير، أو على تشبيه الأثير بالجسم الصلب المرن، هو أن العلماءَ في عصر ماكسويل، كانوا معنيين عناية عظيمة بنظرية المرونة في الأجسام الصلبة. فالمجال الكهربي والمجال المغنطيسي يُفهمان أو يقرّبان من الأذهان، باتخاذ نموذج مفهوم من الصور الشائعة. أما في هذا العصر فيندر بين طلاب العلم من يعرف شيئاً كثيراً، أو من تعمق في دراسة مرونة الأجسام الصلبة. ولذلك انقلبت الآية. فصار العلماء يفسّرون خواص المرونة في الأجسام الصلبة، بما يعرف عن القوى الكهربية بين الذرات التي تتألف منها تلك الأجسام.

وكل طالب من طلاب الهندسة المسطحة، يصنع نموذجاً في ذهنه، كلّما فكّر في مثلّث. ولكن ليس لأضلاع المثلث، عرض ولا ارتفاع. فحين نصنع هذا «النموذج» في الذهن، أو على الورق، نجرّدهُ من كل صفةٍ إلاّ الصفات التي يهمّنا أمرها.

وليس ثمة من يجهل أن معظم نواميس الطبيعة يفرغ في قوالب معادلات رياضية ولكن المعادلة الرياضية، هي أيضاً نموذج من نوع خاص.

والصفة الأصلية التي يتصف بها النموذج. هي أن يشبه في بعض النواحي المطلوبة، حالة جعلناها موضع نظر وبحث. وهذا يعني أن كلّ نظرية تقريباً، تنطوي على شيءٍ من التحكم،

وأنها مقيدة بطائفة من القيود ، تفرضها عليها رغبتنا في أن تكون النظرية نموذجاً لحالة معيّنة دون حالات أخرى .

وقد شهد المشتغلون بالعلم ، انقلاباً خطيراً في الثلث الأول من القرن العشرين ، يستند إلى نظرية اينشتين في النسبية ونظرية بلانك في مقادير الطاقة (كوانتم) . وعسى أن تكون أهم ناحية في هذا الانقلاب ، امتناع العلماء عن الايمان بأن للألفاظ والصور الذهنية ، معاني مطلقة . فالعالم لايعنى بمسألة الوجود . وهو لايسأل : « أثمة للذرة وجود حقيقي »؟. وانك لتفتح معجماً فترى تعريفاً — أو على التدقيق بعض تعريف — للذرّة . وأما مجموع ما يعرف عن الذرّة ، فعند العلماء المتوفرين ولم يتقدم أحدهم بتعريف جامع مانع . ثم ماذا تعني لفظة « الوجود » ؟ . إنها من مسائل ما وراء الطبيعة ، والعالم الحديث لا يهتم — في نطاق علمه الخاص — بشؤون ما وراء الطبيعة . ثمّ لا بدّ في العلم من وصف دقيق محكم لما يحدث ، فاذا ذكرت « الطول » و « الزمن » لم يكن لهما من معنى على الإطلاق ، إلاّ إذا اتفق العلماء على الأساليب التي يجب أن تتبع في قياس المسافة والوقت .

الاحصاء والاحتمال أساس

وقد انقضت سنون كثيرة ، منذ طلع بلانك واينشتين بنظريتيهما بدا خلالها أن التوفيق مستحيلٌ بين « نظرية المقدار » وعلم الطبيعة المأثور عن القرن التاسع عشر . ولكن حين تقدّم هيزنبرج وبوهر ، بمبدإ عدم التثبت زال هذا التناقض . وجوهر هذا المبدإ ، أنك لا تستطيع أن تقيس قياساً دقيقاً موقع دقيقة أصيلة من دقائق المادة ، وسرعتها في آنٍ واحدٍ . في وسعك أن تقيس سرعتها ، أو تعين موقعها ، ولكن أن تحدّد الاثنين كليهما في آنٍ واحدٍ ، أمرٌ مستحيل . فانهار الاساس الذي بنى أمبير حكمهُ عليه ، من أن معرفة مستقبل الكون ممكنة ، إذا علمنا سرعات جميع الذرات ومواقعها وكُتلها . فكتلتها تتغيّر وفقاً لسرعتها ، ومعرفة سرعتها وموقعها في وقت ما شيءٌ مستحيل .

فاذا أخذنا بمبدإ « عدم التثبت » — وقد قبله علماء الرياضة والطبيعة — كان جلُّ ما نستطيع أن نقول عن حركة أية ذرية في المستقبل ، هو : ان هناك احتمالاً كبيراً أن تكون كذا وكذا . فالاحتمال الرياضي أصبح عنصراً أصيلاً في كل حساب . وبتغيير الاحوال التي تحيط بكل ذرة ، كتغيير الطاقة التي تؤثر فيها في لحظةٍ ما ، يتغير ذلك الاحتمال . وقد يبلغ الاحتمال مبلغاً عظيماً ، فكأنه والحتم سواء . ولكنه ليس دائماً كذلك .

فأسفر هذا التطوّر الخطير في علم الطبيعة الحديث ، عن انه كاد يقضي على « السببية » او « العلة والمعلول » .

ومن الطبيعي أن نسأل : إذا لم يكن ثمة « علة ومعلول » فكيف تمكن امراء الطبيعة في القرون الماضية منذ نيوتن ، من استكشاف نواميس الطبيعة وصياغتها هذه الصياغة الدقيقة المحكمة ، التي تصدق على أحوال الكون ، وتمكن العلماء من التنبؤ بالأحداث المقبلة ، كالكسوف والخسوف وما أشبه ؟ والجواب البسيط عن هذا السؤال ، هو أن الطبيعي القديم اختار لدراسته موضوعات من ميادين البحث التي يرجى له فيها أعظم نجاح . فقد كان غرضه العام أن يكشف نواميس الطبيعة العامة . فدبر أمر تجاربه على وجه يمكنه من كشف النواميس التي تتحكم في الأشياء التي كان يبحث عنها . وقد تمكن من إدراك ما يريد ، باشتغاله بظواهر تتوقف على عدد عظيم من الذرات ، لا على ذرات مفردة وحسب . في تلك الحالة ، تسوَّى الفروق بين الذرات المفردة ، ويظفر الباحث بمعدل ينطبق على المجموعة الكبيرة من الذرات . أي انه يعالج الاحتمال ، لمجموعة كبيرة من الذرات ، كما يفعل رئيس قسم الاحصاء في شركة تأمين . فهذا الرئيس لا يستطيع أن يعلم مدى عمر فرد مؤمَّن على حياته ، ولكنه يستطيع أن يعلم — إلى حدٍّ دقيق — مدى عمر جماعة من المؤمنين ، من طبقةٍ واحدةٍ من العمر ، وعلى أساس هذه المعرفة ، تبنى جداول التأمين وتقرر الأقساط لكل مؤمن ، وقلما تخطىء الشركة خطأً كبيراً ، ولو فعلت لأفلست .

عناق العلم والفلسفة

هذه الناحية من التطور الأصيل في أركان العلم وقواعد أسلوبه أوحت بتقارب بين العلم والفلسفة . ففي العصور القديمة ، كانت المعارف الانسانية قليلة التنوع ، فكان حكماء الاغريق القدماء ، أو العرب منذ ألف سنة ، فلاسفة ومصلحين ورياضيين وطبيعيين وأطباء أحياناً ، وكان بعضهم علاوة على ذلك ساسة او جنوداً او تجاراً . فهذا دليل على وحدة المعرفة ، أو على وحدة المعرفة والعمل .

وقد كان طبيعيًّا ان تكون المعرفة وحدة غير مجزأة ، لما كانت العلوم في مهدها . ولم تنفصل العلوم بعضها عن بعض ، وتتحيز مباحثها إلاّ في عهد مدرسة الاسكندرية وبعدها . وقد كان من أثر وحدة المعرفة ، والصلة الوثيقة بين العلم والفلسفة ، في عقول العباقرة ، أن طفرت الفلسفة إلى الأمام في عهد الاغريق وبعدهم .

فلما انشقَّت الهوَّة بين العلم والفلسفة ، أصبح العلم متصلا أوثق اتصال بالعقل المجرد ، قائماً عليه ، وأما شئون السلوك وأدب النفس ، فالعلماء قالوا إنهم لا يعنون بها في بحوثهم ولا يعدُّونها جزءًا من غرض العلم ، ولا يمكن قياسها أو وزنها بأسلوب العلم . فلما تمت للعلم سلسلة

من الانتصارات الباهرة ، تمهدت السبيل لتفسير الكون والحياة تفسيراً ميكانيكيًّا ماديًّا وساد الرأي بأن الحقيقة متصلة بالمادة ، لأن الشيء لا يكون حقيقيًّا إلاّ اذا كان كالمادة مما تدركه الحواس ، ولو كان الادراك نظريًّا كادراك الكهيربات . وظلت هذه النظرة سائدة — على تفاوت في سيادتها — الى أوائل القرن العشرين .

أما وقد أصبحت المادة — في نظر طبيعة القرن العشرين — خليطاً من الزمان والمكان والتموُّج ، فالأساس الذي قام عليه علم القرن التاسع عشر قد انهار . أما وقد زالت الضرورة القاضية بأن حقيقة الشيء يجب أن تنطبق على خواص الأشياء كما تدركها الحواس ، فليس ثمة حائل يحول دون حسبان ما يوحى به الاختبار أو حسّ الجمال ، في عداد الحقائق . وكذلك مُهِّد الطريق لاعادة النظر في تفسير الكون تفسيراً فلسفيًّا جديداً .

وقد كانت النتيجة الأولى التي أسفر عنها هذا الاتجاه الجديد ، تقريب الشقة بين العلم والفلسفة . فعلماء الطبيعة يبحثون أحياناً عن حلول لمشكلاتهم الخاصة في المناطق التي وراء علم الطبيعة المأثور ، والفلاسفة في اهتمامهم بمباحث العلماء ، استرعتهم أساليب العلوم ونتائجها وإننا لنرى فلكيين وطبيعيين ورياضيين من مقام ادنغتن وجينز وبلانك واينشتين ومليكن لا يحسبون عالم المادة ذا كيانٍ مستقلّ عن العقل ، وموقفهم هذا نقيض موقف أسلافهم في النصف الثاني من القرن الماضي ، إذ كانوا يحسبون المادة وحدها حقيقة ، وكلّ ما عداها شبحاً من الأشباح . بل ان هذا الانقلاب يبدو أبعث على العجب إذ نعلم أن المادة كانت في نظر السابقين خاضعة خضوعاً أعمى للنواميس الميكانيكية ، ولكنها كما بيّنا في هذا الفصل متصفة بنوع من حرية الإرادة وفقاً لمقتضيات مبدإ عدم التثبت . والفيلسوفان وايتهيد ورسل يعلّقان على هذه الناحية من خواص المادة شأناً خطيراً .

ومن نتائج هذا التحوُّل ، وأثره في علوم الأحياء أن الحياة لا يمكن أن تكون نتيجة لأفعال المادة الجامدة وحسب ، سائرة سيراً أعمى وفقاً للنواميس الميكانيكية . بل هي شيء أساسي مبدعٌ ولها قصدها الخاص ، ومن هنا نشأت فلسفة التطوّر المبدع أو الخالق ، وفلسفة البزوغ ، وأقطابهما برجسون ووايتهيد والكسندر وغيرهم .

فالتعاون بين العلم والفلسفة آية من أعظم آيات الحياة الفكرية في هذا العصر ، فليس أحدهما وحدة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى ، بل هما عضوان حيّان في جسم حيّ واحد هو جسم المعرفة الانسانية .

فؤاد صروف

التاريخ عمل انساني

بحث في المدنية الغربية وقالبها التاريخي

شبه مجرى التاريخ بنهرٍ عظيم ، ينبع من مصدر قديم ضارب في مظان الزمن ، متخذاً مجراه في سهول أسيا (١) ، ماضياً برفق وهوادة خلال القرون ، مستجمعاً مياهه من روافد جديدة اتصلت به على الطريق ، حتى إذا ما بلغ عصرنا الحاضر ، اتسع بعظمة ، وفاض بقوة فغمر الدنيا بأسرها .

من الناس من جسَّد هذا الفيض ، وجعل له شخصية وذاتية ، وفرض له ارادة خالقة تتجه نحو النشوء والتطور ، متبعة سنتها الخاصة بها ، نازعة نحو بلوغ غاية مقصودة معينة.

تكلم هؤلاء فيما سموه منطق الآراء ، واعتبروا الانسان والمدنية برمتها ، أدوات سلبية ، سخرها ذلك « الموجود العظيم » ، للوصول الى غاياته . غير أن الباحث الذي يأخذ بزمامه مثل هذا التفسير لسير التاريخ ، يصعب عليه استبانة شيء من ذلك السوق الهادىء النظيم في الحوادث التي اعتورت الانسانية ، ويشعر ، فوق كل شيء ، ان اعتبار الانسان أداة سلبية صنعت بها الاشياء ، وبلغ بها الى الغايات ، إنما هو في الواقع تزييف صرف لحقيقة ثابتة ، حقيقة ان الانسان هو الذي صنع التاريخ ، وأن التاريخ لم يصنع الانسان .

لقد شيد الانسان المدنية ، واستقصى بصبر بالغ وجهد وافر ، كل طريق يصطنع به المستحدثات والاشياء ، ونصب كل النصب عاملاً مجدًّا في استنباط كل رأي واستخلاص كل فكرة نعتبرها اليوم جزءًا من ميراثنا عن الأزمان السالفة . عمِلَ الانسان عملاً متصلاً متأثراً بالبيئة التي حوته ، وبقدر ما وصل الى يده من الوسائل ، فرداً فرداً ، وجماعة جماعة وسلالة سلالة ، ولا أثر لموجود كليٍّ يقال له « الانسانية (٢) » فيما بنى وشيد ، وأثث ونجد. إن المعتقدات والمثاليات التي تعيش عليها الدنيا الجديدة في العصر الحاضر ، وبمقتضاها

---

(١) اشارة الى ان الانسان نشأ في أسيا

(٢) « الانسانية » هنا يقصد بها موجود كلي يقول به الغيبيون . والقول بوجود الكليات مذهب فلسفي ، ينابذه مبدأ فلسفي آخر ينفيه ، هو القول بعدم وجود الكليات .

تعمل ، ليست هبة من الآلهة ، كما جرت على ذلك الأسطورة القديمة ، وإنما هي نتاج جهدٍ بذله أجيال متعاقبة .

وهي فوق ذلك ليست نتيجة تجمّع بطيء متصل الأثر ، ككرة الثلج كلما زدتها ثلجاً زادت حجماً وتكوراً ، فان أمماً برمتها وسلالات بجملتها ، قد جهدت ما جهدت في استنباط آراء وقضايا عقلية ، ثم اختفت من الوجود ، غير مخلفة في عقول القرون المتأخرة غير أثر تافه ، وما تبقى مما خلف هؤلاء ، تلقفه جماعات أخر وأنعمنَ فيه النظر وأدغمنهُ في بقية معتقداتهم ، ومن ثمَّ تلقفها أناس آخرون ، فحوّروا فيها ، وبدّلوا من قوامها ، وعدّلوا في قوالبها .

حُووِل عديد من البدايات ، وكثير من الأشياء ذوات القيمة قد فقدت وزالت ، وكثير من الأشياء التافهة ، وحتى الضارّة ، قد اكتنزت وبولغ في العناية بها . ومن المستطاع الآن ، بما بين أيدينا من المصادر ، وبجهد الباحثين المتواصل وكدّهم ، أن نرجع سعياً إلى الماضي السّحيق ، وان نؤلف صورة لحقيقة ما كان عليه كثير من الحضارات ، وأن نُجَسِّمها كُلاً كاملاً مُتَّصَل القَسَمَات .

إن مثل هذا الجهد يطبعنا دائماً بطابع العجب من كثرة ما كشفنا عنه من خبايا الماضي. فقد نعلم من طريقه ان المصريين الذي عاشوا في الألف الرابعة قبل الميلاد ، وان الأمم التي عاصرت البابليين ، كانوا صورة مما نحن الآن ، وبكلمة موجزة : كانوا أناسيّ فيهم مثل إنسانيتنا ، ولكن الكلام في ذلك ليس من شأننا في بحث نريد ان نلمّ فيه بحقيقة الانسان في العصر الحاضر ، وكيف تكوّن على الصورة التي نراها .

إنّ مدنيتنا هي في الواقع مزيج مما استطاع أسلافنا أن يفوزوا به من تلك الثقافات الوضاحة الرَّيِّقة ، مضافاً إليها ما استطاعوا أن يضيفوه إلى المادة التي تلقوها عن السابقين. وإننا لنفهم ذلك الهيكل الكلّي ، إذا بدأنا بالنظر في أمم العالم القديم ، وحاولنا أن نَبْصر كيف استطاعوا أن يستجمعوا كنوز الماضي ؟

المدنية الغربية وقالبها التاريخي

عند ما نتكلم عن الحضارة ممتدحين صفاتها ، فإنما نعني بها جملة الأشياء الاعتقاديّة والعمليّة الذائعة في أوربا وفي غيرها من بقاع الكرة الأرضية ، التي يأهل بها سلالات من الأصل الأوربيّ . وإرضاء لبعض الأغراض نقرّر أن قولنا هذا ينظر إلى النصرانية ، ولأغراض أخرى نقرّر إنه ينظر إلى البلاد التي مسّتها الثورة الصناعية .

هذه هي الحضارة التي بفضل فوزها ببعض علوم تطبيقيَّـة استطاعت أن تخترع المدفع السريع والبارجة الحربية ، فكان لها شيء من القساط غير المستقر على أرجاء الأرض . وأنها لحضارة فتية بالقياس على الحضارات ، فليس لهـا تاريخ متصل الاّ من الف سنة ، ولكنها في هذه الفترة قد انتابها من التطور والتغاير أكثر مما نال غيرها من حضارات العالم . وبالرغم من أنها استملكت العلم منـذ ثلاثة قرون ، فانها لم تملك مزايا معيَّنة بيّنةً على غيرها من ضروب الثقافات ، إلاّ في مئة العام المنصرمة . ففي نهـاية القرن الثامن عشر ، لم يـرَ أهل الصين في أوربا من شيء يمكن أن يستفيد منه علماً . ولا يزال كثير من المفكرين يشكّون في انه لم يكن على صواب . ولكن الواقع انّ هذه هي الحضارة التي ورثناها والتي تخضع ويخضع لها معنا العالم كله . وقبل أن نمضي في سرد الظروف التي أدّت الى نشوئها ونمائها ، يكون من الفائدة أن ننعم النظر في بداياتها التاريخية الصحيحة .

الحضارة الغربية ثمرة مجهود أجيـال من البشر ، وبخاصَّة ، أولئك الذين قطنوا شمال أوربّـا الغربي ، الذين وجدوا هنالك بعد أن انحدرت الامبراطورية الرومانية إلى الانحلال عقليّـا واجتماعيّـا . وهي تمثل مزيجاً من الآراء المنتحلة من العالم الهلّيني ، والعادات والأمزجة التي وسعها عقل الهمج الذين غزوا تلك الامبراطوريَّة وقوّضوا قائمها .

إن لانحلال الامبراطورية الرومانية ، بحضارتها العقلية والمادية ، أسباباً كثيرة معقدة ملتبسة ، لم يكن غزو الهمج الاّ سبباً مكمّلاً لها ، ان لم يحتمل أن يكون نتيجة لا سبباً وكان من نتائج انحلالها ان مركز الحياة العقليَّـة أخذ يرتد نحو الشرق شيئاً بعد شيء ، حتى استقرَّ في القسطنطينية مدينة الهلينيين والأغارقة . هذا ونجد أن غرب أوربّـا قد تولاه كثير من العوامل ، من أهمها الغزو الاسـلامي الذي اجتاح جزءاً عظيماً من حوض البحر المتوسط ، فاضطرّ مركز القوة في الغرب أن يرتد نحو الشمال شيئاً بعد شيء ، حيث استقرّ في زمن شارلمان في فرنسا وغربي المانيا .

ان السلالات التي أهلت بها تلك البقاع لم تكن في غالبيتها من الأرومات التي اقامت الحضارة القديمة ، بل خليطاً من الغاليين القدماء ، الذين مدنهم الرومان في مستهل العهد النصراني ، وعدداً أقل من الغزاة « التيوتون » الذين هبطوا من الشرق .

وإذا نظرت في ايطاليا الرومانية واسبانيا وجنوبي فرنسا ، وجدت ان الهمج النازحين قد كوّنوا جزءاً لا يستهان به من مجموع السكان .

ان الارتداد نحو الشمال قد دلّ على ان الأمم الغربية بنشوئها تدرجاً من الخليط الذي تألف من تلك العناصر وبروزها من ثناياه ، كانت على وجه عام من سلالة أقرب عهداً بالحضارة

من أمم البحر المتوسط وفوق هذا ، فانها قد قطنت اقليماً قليل الاحتشاد بالآهلين ، وفي كنف حالات اجتماعية كانت لا تزال مشابهة لتلك التي أحاطت برواد القارة الامَيركية لدى أول استعمارها . هذا في حين ان الحياة الاجتماعية في الجنوب كانت قد أخذت تنزع الى الخشونة درجة بعد أخرى . وقلّ ان نقع على انحراف فيه شذوذ يخرج بالحياة عن اطراد الثقافة القديمة في ايطاليا واسبانيا وجنوبي فرنسا وتواصلها ، رغم ما لحق بالأسس الاقتصادية التي كانت لتلك الثقافة من الانحلال والفساد . أما في الشمال فان الغاية التي اتجه فيها أهله ، منذ أيام الغزو الروماني ومن بعده ، قد انحصرت في اقامة حياة اجتماعية نظيمة في بقعة لم تشهد إلاّ نماءً حضاريًّا نسبيًّا ، كما اتجهت الى هضم وتمثيل ثقافة الدنيا الحافة بالبحر المتوسط ، بقدر ما يمكن من العجلة .

إن صدمة الهمج الذين قبضوا على زمام الحكم ، قد عاقت سير النظام الذي كان قد قفز نحو الكمال بخطًى واسعة في ظل الحكم الروماني . وقد جاء زمن يغلب ان يكون قد حصل فيه انتكاس بين ، ورجوع الى الوراء . ولقد نستطيع ان نكوّن فكرة عن ذلك الموقف ، إذا قرناه بما وقع في اميركا في أوائل القرن التاسع عشر . فشمال أوربا قد ينظر الى ما عرف في ذلك الوقت بوادي المسيسبي وغربي الولايات المتحدة ، وإيطاليا والجنوب ينظران الى شاطىء الاطلنطي ، وكان فيهما ثقافة أرقى مما كان في الاولى . أما القسطنطينية والشرق ، فينظران إلى اوربا ، وفيهما نواة الحياة المدنية ومركزها .

ان الجمعية التي قطنت غربي اوربا كانت جمعية ارتياد ، وقد جاهدت في سبيل تكوين مملكة جديدة ، ولم تجد في اثناء جهادها من الوقت ما تصرفه في سد حاجات العقل . ومن أجل ذلك دُمِغَت بكل ما في اصطلاح « العصور المظلمة » من المعاني . ففي شمال اوربا الشرقي ، كان العصر عصر « ظلامية » ، لا لأن الناس لم يكونوا على قسط وافر من النشاط والمقدرة ، ولا لقلة ما كان يتوقع من حياة طيبة مستكفية تنال بفضل ذلك الجهد وتلك المقدرة ، ولكن لأن أهل تلك البقاع كانوا حينذاك ، كأهل تخوم اميركا ، قد صرفوا كل ما لديهم من جهد لتحقيق أغراض كان من الواجب تحقيقها ، قبل ان تتجه المطامع إلى الأمل في وجود جمعية متنوّرة مثقفة .

بذلك ارتدّ مركز الغرب الحيوي الى بقاع أهلت بسلالات من حقنا ان ندعوها الأمم الغربية . وهم أمم شغلت ، في أول ما شغلت به ، بتنشئة حياتها المدنية في بلاد قليلة السكان مهملة المرافق . على ان القليل منها من استطاع ان يحصل على فراغ صرفهُ في تحصيل ثقافة بلغت من الرقي مبلغ ثقافة الدولة الرومانية قبيل انحلالها . وانحصرت هذه الاقلية في الكهان

وبعض سكان المدن من النبلاء . ولكن وجد الى جانب هؤلاء زمر وفيرة من الجهلاء والمخشوشنين صرفتهم مهام الحياة عن مباشرة مثل هذه النعائم ، مثلهم كمثل أميركا المستعمرة، فقد كان في مدنها الشاطئية جماعات متنورة رفيعة الثقافة ، كما كان في داخليتها روّاد خصوا بالقوة والذكاء ، ولكنهم كانوا جهلة مظلمين .

وكانت أمم الغرب ، في اكثر الأمم عاجزة عن استيعاب او تمثيل (١) كثير من المقومات الثقافية ، على الرغم من انه حيثما انتشر سلطان الكنيسة ، ازدهر العلم والفن وبلغا درجة كبيرة من الرقي . ولقد اضطرت هذه الأمم أن تعيش خمسمئة سنة ، عيش الروّاد المستعمرين ، فلم تهدأ بينهم المناجزات في ظلال الحرجات والاجمات والسهول في غربيّ أوربا ، بعيدين عن مؤثرات التيارات الفكرية التي اندفقت في تضاعيف ذلك العصر ، بُعدَ سكان كاليفورنيا أو أوستراليا عنها منذ جيلين فرطا من الزمان .

فلو انه وجد في ذلك الزمان بقعة غصت بالمعامل أو أفعمتها رؤوس الأموال وتطلعت الى الأسواق ، إذن لنظر أصحابها الى هؤلاء الغربيين نظرة أنهم من « السلالات المتأخرة » ، ولكثر الكتّاب الذين يقيمون البراهين على أنها ، لعجزها عن استيعاب العلم واستمداد المعرفة من العالم الهلّيني ، وقصورها ، بعد انسلاخ قرونٍ ، عن أن تفوز من النصرانية إلاّ بسطحيات خشنة غليظة ، هي بحكم الطبع غير كفيلة بأن تحمل أمانة الثقافات الشرقية إلاّ بقدر ما يستطيع أن يحمل منها همجي من السود أو الصفر .

لا شك في أن هؤلاء الكتّاب يكونون قد أخطأوا تقدير الموقف . ولكن لا ينبغي أن يغرب عن فهمنا انه من المتعذر طبعاً أن ندرك أن بناة المدنية الغربية قد بدأوا بناءهم بما يقرب من اللاشيء ، ثم مضوا في نشوئهم بمثل ذلك البطء المضني . وانه لمن أبعد الأشياء عن إرضاء كبرياء شعب من الشعوب ، أن يعترف بأن كنوز المعرفة التي اختطّ اليها طريقه بعد لأيٍ وتعب لتكون أساساً لحضارته ، قد أهملت ونبذت من قبل مئات من السنين ، بل كادت تنسى ويعفّي عليها الزمن .

ان كنوز اغريقية والشرق ، تلك التي وصل الى لبابها الرومان في أقل من أربعة قرون أو خمسة ، والتي هضمتها ومثلتها الشعوب الساميّة بغير كبير عناء ، قد اقتضت من شعوب الغرب ضعف ذلك الزمن ، حتى يصلوها بفطرتهم . فلم يكونوا قبيل القرن الثاني عشر ، قد بلغوا بعد من الرشد مبلغاً استطاعوا عنده ان يفقهوا معاني الآراء القديمة ، ولم يساووا

---

(١) التمثيل فعل فزيولوجي مؤداه ان الجسم الحي يحول الاغذية بعد هضمها عناصر تندمج في عناصره والمعنى المقصود هنا حدوث فعل مشابه لهذا في عالم الفكر .

من حيث القدرة الذهنية ، رجال الاسكندرية او القسطنطينية او روما الذين ظهروا قبل ذلك بألف سنة ، ولم يصلوا من حيث المدنية الى ما وصل اليه الهنود واهل الصين قبل العصر المسيحي بقرون عديدة ، إلاّ في حدود القرن السادس عشر . وربما كان شأن السلالات كشأن الأفراد ، كلما طال عصر طفولتهم ، طالت مقدرتهم على متابعة الدرس والتفقه في حين يكون غيرهم قد بلغوا أقصى مبالغ القدرة على الاستيعاب ، فاستفرغوا كل مواردهم الطبيعية .

اما القول بأن هذه الأمم المؤتشبة (١) التي سكنت الغرب ، كانت قد اقامت في حدود القرن الثالث عشر جمعية فيها جمال وفيها فخامة ، جمعية تحمل في تضاعيفها من الخصائص ما يجلب لها عطف كثير من القلوب في عصرنا هذا ، وبخاصة لأنها ملكت اشياء فقدناها وكانت لا تقدر بثمن ، فذلك من الحقائق التي لا يدخلها الريب ، ولا تحتمل المماراة . ولكنها على الرغم مما كان فيها من جمال وفخامة ، فانها كانت خشنة جاهلة ، وفيها صبغة الحداثة . جمعية من الروّاد ، حاربت وجالدت للخروج من ماضٍ صرفته ، كادّة ناصبة ، في سبيل البقاء من ناحيتين : الناحية الطبيعية والناحية الروحية .

فاذا اعتبرنا ان القرن الحادي عشر هو نهاية تلك «العصور المظلمة» التي جهدت خلالها الأمم الغربية لتحقق لحياتها دعامة تقوم عليها من الوجهة الطبيعية ، وجب علينا ان نسلم بأن هذه الأمم كانت ، حتى ذلك العصر ، أشبه بالطليعة في الحياة الانسانية . ففي غابات فرنسا البدائية ، عاش بضعة ملايين من البشر الأقوياء يفلحون الأرض ، ولم يكن في مجاهل انجلترا اكثر من مليون . وكانت الوحوش ما تزال تطوّف بعمرات القرى الصغيرة والدساكر ذات الأسواق . وكان هنالك فن بدائي محبب الطابع ، ولكن الدرس والاكباب على استيعاب المعرفة ، ورفاهة العيش المدنيّ ، كانت بعيدة عنهم ، بعدها عن مستعمرات تخوم وادي المسيسبيّ في عصر واشنطون .

على حدود الشرق ، تربعت القسطنطينية على عرش إغريقية وروما بعد ان ورثتهما ، فكانت بالرغم من حياتها الجامدة المستحجرة ، أعلى ثقافة ، وأفخم مدنية من كل ما تقع عليه في رحاب الغرب . غير ان الورثة الحقيقيين الذين تلقوا أمانة المعرفة عن القدماء ، لم يكونوا في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وإنما كانوا في بغداد عاصمة الخلافة العربية ، وموئل العلم الأغريقي ، ومنزل النشاط العقلي ومستقر الحكمة . ذلك بأنها تلقت الفلسفة الهلينية والعلوم الطبيعية بصدرها الرحيب ، عندما طاردهما التعصب النصراني في القسطنطينية

ولقد احتضن الغزاة المحمديون في اسبانيا الثقافة الهلّينية ، مؤتمين بنظرائهم في بغداد

---

(١) المختلطة المؤلفة من عناصر مختلفة

الاجهاد العصبي

الاجهاد العصبي مرض يصيب الجسم والعقل معاً . ولقد زادت أعراض هذا المرض بزيادة حاجات الحياة الحديثة ، وبخاصة في هذه الفترة التي اضطربت فيها أوتار الحياة العادية . وهذا الجهد ، بل هذا التوتر العصبي مع ما يتبعه من تعب جسمي يؤثر في صحتك البدنية ، كما يؤثر في سعادتك العقلية وطمأنينة بالك وراحة قلبك .

ومهما تكن الاسباب الباعثة على هذا التعب فالنتيجة انه ضرب من « التسمم الذهني » يؤثر في الجهاز العصبي ، وبذلك يكيف مزاج الانسان تكييفاً سيئاً ، فاذا جنحت الى الراحة والدعة فاستجممت ، فان « سموم التعب » يمتصها الجسم ثم يطردها فتعود الى حالتك السوية مرة أخرى .

ومن الناس من يستمر في العمل مجهداً جسمه وأعصابه من غير ان يفكر في راحة ترد اليه العافية . وهنالك فريق آخر من الناس يشعرون بأنهم في تعب وجهد من غير أن يستطيعوا ان يعرفوا سبب ذلك . وفي كلتا الحالتين تقع على أعراض تكاد تكون واحدة : انهاك مفرط ، وقابلية للتهييج ، وسوء الهضم ، والصداع ، وآلام غير معروفة المصدر او السبب . فاذا أنست في نفسك بعض هذه الاعراض فاعلم انك مقدم على طور من الانهاك العصبي فاذا أهملت علاج هذه الاعراض ، فانك ولا شك تساق الى نتائج أبلغ أثراً .

أما السبب في أن بعض الناس قد يصيبهم الانهاك العصبي ، فراجع الى انهم يهملون الخلود الى الراحة اذا شعروا بحاجة اليها . والوصايا الصحية التالية هي علاج ناجع في مثل هذه الحالات

(١) لا تتجاوز حد احتمالك من التعب (٢) اتخذ عادة الراحة وافتن في أسبابها (٣) الزم الاعتدال في كل أعمالك (٤) أرح ذهنك المجهد بالرياضة (٥) تعلم كيف تضبط عواطفك (٦) أبعد عن قلبك ما تتوقع من مخاوف (٧) خذ من الراحة والنوم قسطك المطلوب (٨) نظم غذاءك (٩) افحص عن نفسك طبياً في دورات منظمة (١٠) اغرس في نفسك عادة اتباع الانظمة الصحية .

فعمرت بها معاهد قرطبة وغرناطة كما نظر علماء البربر من خلال مدنهم العامرة ، ومكتباتهم المفعمة بألوان الكتب والمجلدات ، باستخفاف وعدم اكتراث إلى الشمال ، حيث قطن أولئك الفلاحون ، سكان فرنسا والمانيا .

ولكن ، من أجل أن نستكشف مستقرّ الحضارات الحقيقيّة التي نشأها وغذاها تواصل الحياة وطول العهد بالرفاهة الماديّة والنشاط الروحي ، وجب علينا أن نضرب نحو الشرق ممعنين فيه لأبعد من تلك البقاع التي نشأت فيها الحضارة السامية على ضفاف الرافدين ، وأن نضرب في الأرض حتى نصل إلى الهند والى الصين ، فهنالك نقع على مُثل من الحضارة ، تتضاءل الى جانبها كل ما تضمنت أوربّا ، بل هي تقمأ (١) وتذل ، حتى لتكاد تتوارى .

اسماعيل مظهر

---

(١) تصغر

مقتل مالك بن نويرة

وموقف خالد بن الوليد

أصدر سعادة الدكتور محمد باشا هيكل بضعةَ كتب في التاريخ الإسلامي ، في الصدر الأول . وكان عملاً ناجحاً ، ناجحاً من ناحية النَّفاق تماماً ، فما يكاد الكتاب منها يصدر حتى تتخطفه الأيدي ، وحتى تكادَ نُسخُه تَنفَد من السوق . وناجحاً من الناحية العلمية بعض النجاح . ولو لم يكن من أثره إلاّ أن يُحبّبَ إلى شبابنا ، الذين كدنا نفقدهم ، قراءة سيرة رسولهم ، وأخبارِ قومهم وسلفهم . وكانوا من قبلُ يُعرضون عن دينهم وعن عروبتهم ، ويتمسحون في أوروبة ويقدسونها ، ويجهلون كلَّ ميزة لقومهم ، بل يكادون ينكرون أنهم أمة من الأمم ! لو لم يكن من أثره إلاّ هذا لكفى .

وقد تناول الباحثون المحققون كتابه الأوّل « حياة محمد » بالنقد ، وطال الجدال حوله حتى لقد ذهب ذاهبون إلى أنه منقول أو مقتبس أو مترجم عن كتاب بهذا الاسم لمستشرق يدعى درمنغهام ، ولم يكن لنا سبيل إلى تحقيق ما قالوا ، إذ لم نطلع على كتاب درمنغهام ، عن جهلٍ منّا باللغة التي كتب بها . وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية أخيراً ، وظهر من عهدٍ قريب ، وسيكون لنا في ظهوره فرصة نحقق بها ما رُمي به كتابُ الباشا ، فنقرن فصوله وأبحاثه إلى مثيلاتها من الكتاب المترجَم ، فنعرف ما أخذ أحدهما عن سلفه ، بعد أن عرفنا أنه أخذ منه اسم الكتاب « حياة محمد » ، وإن كان الكتابان — فيما يبدو لنا — متباينين ، وسنرى في ذلك رأينا إن شاء الله .

وكان فيما قرأنا من هذه الكتب ، كتاب « الصديق أبو بكر » فأعجبنا منهُ حسنُ سرده للحوادث ، والعناية بعرضها عرضاً جيداً مشوّقاً . وأبين مزاياه قوةُ المؤلف ومقدرته في تلخيص الروايات وجمعها ، وفي الاقتباس والتضمين ، حتى ليبدوَ الكلام نسقاً متقارباً ، فإذا ما تأمله العارف وضح له الفرق بين الكلام المقتبس والكلام المؤلَّف ، وقد استيقنّا من ذلك في مواضع كثيرة ، قرنّا فيها قصَّهُ للوقائع إلى نصوص الأقدمين من المؤرخين ، خصوصاً ابن جرير الطبري .

وهذه الطريقة الطريفة فائدة نحرص عليها ، أن يمرن القارئون المحدَثون على قراءة النصوص العالية القوية البليغة ، التي تحدث بها الفصحاء والبلغاء من الرواة والمؤرخين السابقين ، مما كاد يهجره أهل هذا العصر .

وكان لنا على كتابه هذا مآخذ ، بعضها هيّن ، لا يغض من قيمته ، وبعضها خطير . وأخطرها — فيما أرى — وأبعدها مدًى في الإبطال ، صنيعه فيما كان بين خالد بن الوليد ومالك بن نويرة ، وحبه الإتيان بما لم يأت به الأوائل في الدفاع عن خالد ، لجاء حقيقة بما لم يأت به الأوائل ! !

فقد لخّص المؤلف — أو اقتبس — الروايات التي وردت في وقعة خالد ومالك ، وذكر تضارب الأخبار فيها ، ولكنهُ أتى في بعض الرواية بشيء لم نجد عليه دليلاً ، وما نظنه يصح ، فلو أنه صحّ لم يكن لخالد عذر ، ولم يكن أبو بكر ليعذره ، ولوجب عليه أن يأخذه بدم مالك بن نويرة . فقد قال المؤلف (ص ١٤٥) : «إلى هنا تتفق الروايات ، ومن هنا يبدأ اختلافها . قال أبو قتادة : إن القوم أقروا بالزكاة وإيتائها . وقال غيره : بل أنكروها وأصرّوا على منعها » ! !

ولم يكن شيء من هذا ، فيما نعلم ، فقد كان من عهد أبي بكر إلى جيوشه في حروب الردة : « إذا نزلتم منزلاً فأذّنوا وأقيموا ، فإن أذّن القوم وأقاموا فكفوا عنهم وإن لم يفعلوا فلا شيء إلاّ الغارة ، ثم تقتلوا كل قِتلَةٍ ، الحرقَ فما سواه ، وإن أجابوكم إلى داعية الاسلام فسائلوهم ، فإن أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبَوْها فلا شيء إلاّ الغارة ، ولا كلمة » . وهذا هو المعقول البديهيّ المعروف من شرعة الاسلام ، ومن أخبار الخلاف بين أبي بكر وعمر في قتال مانعي الزكاة المرتدين ، فقد كان عمر يظن أن منع الزكاة ليس ردةً ، وأن إظهار الاسلام وإقام الصلاة كافيان في حقن الدماء ، فأقام أبو بكر عليه الحجة ، حتى اطمأنّ إلى أن أداء الزكاة كإقام الصلاة شرط في صحة الاسلام ، فقال عمر : « فوالله ما هو إلاّ أن قد شرح الله صدر أبي بكر فعرفتُ أنهُ الحق » .

فلو أن أبا قتادة ومن معه ، الذين خالفوا على خالد ، قبل مسيره الى البُطاح (١) وبعده ، وبعد أخذ مالك بن نويرة ، شهدوا أن مالكاً وقومه «أقرّوا بالزكاة وإيتائها» لم يكن خالد ليأمر بقتل رئيسهم مالكٍ إن شاء الله ، فانما كان مسيره ليرجعهم إلى الاسلام وليأخذ منهم الزكاة ، فماذا بعد أن يعطوا ما سار اليهم من أجله ؟ لا شيء إلاّ العدوان وسفك الدم الحرام ،

---

(١) البطاح : بضم الباء ، وقد ضبطت في الكتاب (ص ١٣٦) بكسرها ، وهو خطأ .

ونعيذ بالله خالداً وَمن معه من ذلك . فهذه رواية لم نرها في شيء مما بين أيدينا من المصادر ، ولا تكون صحيحة أبداً ، فما ندري من أين جاء بها المؤلف ! !

وقد ساق المؤلف مسير خالد هذا المساق : « ثم إنه أزمع السير إلى البطاح يلقي فيها مالك بن نويرة ومن كان معه في مثل تردُّده . وعرف الأنصار هذا العزم منه فتردَّدوا وقالوا : ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إنما عهده إنْ نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا . وأجابهم خالد : إن يكن َعهد اليكم هذا فقد عهد إليّ أن أمضي ، وأنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار ، ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصةً إن أعلمته بها فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه ، لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصدٍ له بمن معي من المهاجرين والتابعين لهم باحسان ، ولست أكرهكم » . (ص ١٤٣ — ١٤٤)

وهذا النص نقله المؤلف من تاريخ الطبري (٣ : ٢٤١ طبعة الحسينية) واختصره بعض الاختصار ، وحرَّفه بعض التحريف ، وإن أتى بجملته ومعناه تقريباً ، ولا بأس . ولكنْ في هذه الرواية شيئاً من الشذوذ ، تحتاج معه الى نقد وفحص . فليس من منطق الحروب ولا منطق الولايات أن يعهد الامير الأكبر أو القائد الأعلى الى من دونه من القواد والولاة بعهدٍ ثم يعهدَ في الوقت نفسه الى الجند أو إلى من دون القائد والوالي ممن يأتمرون بأمره — : بعهد آخر خاصٍّ بهم ، بل المعروف في الدنيا كلها ، وفي تاريخ الولايات في صدر الاسلام خاصة ، أن الأمير أو القائد له الطاعة الكاملة على من هو في ولايته من الجند والقواد ، حتى لو كانوا أرفع درجة منه أو أقدم اسلاماً وهجرة . والمثل على ذلك حاضرة ، يعرفها كل من قرأ شيئاً من التاريخ . فهذه الرواية إما أن يكون فيها شيء من الخطأ من رواتها ، وإما أن يكون أبو قتادة رضي الله عنه ومن معه من الأنصار سمعوا شيئاً من أبي بكر ، ظنوه عهداً خاصًّا اليهم فأخطؤوا سمعه أو فهمه ، ثم أخطؤوا فيما ذهبوا اليه من الخلاف على خالد ، فلما استبانوا خطأهم ، بعد أن سار وتركهم ، أرسلوا وراءه من استمهله حتى أدركوه ، ندماً على ما كان منهم ، ودخلوا معه في أمره .

وفي الطبري رواية أخرى تساير منطق الحوادث ، وتساير منطق العهود والولايات (٣ : ٢٢٥) فهي تقول : « لما أراح أسامة وجندُه ظهرهم ، وجمُّوا ، وقد جاءت صدقاتٌ كثيرة تفضُل عنهم ، قطع أبو بكر البعوثَ وعَقَد الألوية ، فعقد أحد عشر لواءً ، عَقد لخالد بن الوليد وأمره بطُليحة بن خُويلد ، فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبُطاح إن أقام له » . فهذا هو العهد الصحيح ، وهو المعقول في شأن الولاة والقواد ، أن يكون

العهد لهم ، وأن تصدر الأوامر اليهم ، لا الى مَن دونهم من القادة أو الجند .

ولسنا نأخذ على المؤلف أن أتى بتلك الرواية ، ولكنا كنا ننتظر منه أن ينقدها ويظهر ما فيها من ضعف ، ونأخذ عليه أنْ أعرض عن الرواية الصحيحة التي تصوّر الأمر تصويراً منطقياً معقولاً ، وتفسر تلك الرواية وتظهر ما فيها من ضعف أو وهم .

ومما يدل على ضعف تلك الرواية أو بطلانها أن أبا قتادة بعد أن عاد هو ومن معه الى خالد ، وبعد مقتل مالك بن نويرة ، عاد إلى سخطه على خالد ، فجادلهُ في مقتل مالك بن نويرة ، يقول الطبري (٣ : ٢٤٢) وصاحب الأغاني (١٤. ٦٥ طبعة الساسي) : « فزبره خالد ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر ، فغضب عليه أبو بكر ، حتى كلمهُ عمر فيه ، فلم يرضَ إلاَّ أن يرجع اليه ، فرجع اليه حتى قدم معه المدينة » . فهذا الخليفة ، وهو القائد الأعلى إذ ذاك ، يغضب على أبي قتادة ، على فضله وسابقته ، أن خالف عن أمر أميره وقائده ، وأن ترك الجيش ورجع إلى المدينة يشكو أميره ، لم يقبل له عذراً ، ولم يسمع له شكوى ، وأبى إلاَّ أن يرجع إلى أميره يكون في طاعته ، لم يمنعهُ من ذلك شفاعة عمر ، فأطاع وكان مع أميره حتى وردا المدينة معاً ، بعد تمام الغزو الذي خرجوا له .

أفرأيتم هذا يلائم تلك الرواية : أن أبا بكر عهد إلى أبي قتادة ومن معهُ من الأنصار عهداً خاصاً لا يعلمهُ أميرهم خالد ؟ ! وأين احتجاج أبي قتادة بأنهُ إنما صنع هذا طاعة للعهد الخاص به ، وماذا يكون جواب أبي بكر إن حجّهُ أبو قتادة بما عهد اليه به ؟ !

ولست أدري لماذا أعرض المؤلف عن هذا النص القاطع أيضاً ؟ إلاَّ أن يكون يسوقُ الروايات والأخبار كما يحب ويَرى !

ثم قصَّ المؤلف قصة مقتل مالك بن نويرة ، وتزوج خالد أو تسرّيه امرأة مالك بعد قتله ، وحكى الروايات المتضاربة التي وردت في ذلك ، ويطول القول لو أردنا أن نفصل ما فصلهُ أو نجملهُ . ولكن الثابت من مجموع الروايات أن ضرار بن الأزور الأسديّ قتل مالكاً ، فبعضها يجعل هذا القتل عن خطأ في فهم اللغة ! تزعم الرواية أن خالداً أمر منادياً فنادى « دافئوا أسراكم ، وكان في لغة كنانة اذا قالوا : دافأنا الرجل وأدفئوه فذلك معنى اقتلوه ، وفي لغة غيرهم أدفئوه من الدفء ، فظنَّ القوم أنهُ يريد القتل ، فقتلوه . فقتل ضرار بن الأزور مالكا » (عن الأغاني ١٤ : ٦٥ والطبري ٣ : ٢٤٢) . وهذه رواية باطلة ، تشبه أن تكون من خيالات الأدباء وفكاهاتهم ، وبطلانها ظاهر من أول سياقها ، فانها تبدأ بأن الخيل جاءت إلى خالد « بمالك بن نويرة وفيهم أبو قتادة ، وكان ممن شهد أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم » وقد بيّنا فيما مضى من قبل أن الأذان وإقام الصلاة

مع منع الزكاة لا يحقن الدم ولا يمنع من الحكم عليهم بحكم الردة . فاختلاف السرية — في هذه الرواية — أو اتفاقها على أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا لا يقدّم ولا يؤخر ، إذا كانوا لا يزالون مصرين على منع الزكاة . وإنما هذه الرواية أشبه بالأحاجي والألاعيب .

وتذهب الروايات غيرها إلى أن خالداً جادل مالكاً وطاوله ، فلما استيقن من أمره أمر بقتله ، وان اختلفت ألفاظها فيما حكت من الحوار بينهما . ففي تاريخ الطبري (٣ : ٢٤٣) : «وكان خالد يعتذر في قتله أنهُ قال وهو يراجعهُ : ما إخال صاحبكم إلاّ وقد كان يقول كذا وكذا ، قال : أو ما تعده لك صاحباً ؟ ! . ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه » . وفي تاريخ ابن كثير (٦ : ٣٢٢) : « ويقال بل استدعى خالد مالكَ بن نويرة فأنّبه على ما صدر منه من متابعة سَجَاحِ — المتنبئة الكاذبة — وعلى منعه الزكاة ، وقال ألم تعلم أنها قرينة الصلاة ؟ فقال مالك : إن صاحبكم كان يزعم ذلك ! فقال : أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟ يا ضرار اضرب عنقه» . وفي ابن خلكان (٢ : ٢٢٧ طبعة بولاق) : فكلمه خالد في معناها — يعني الزكاة — فقال مالك : إني آتي بالصلاة دون الزكاة . فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً ، لا تقبل واحدة دون أخرى ؟ فقال مالك قد كان صاحبك يقول ذلك ! قال خالد : وما تراه لك صاحباً ! والله لقد هممت أن أضرب عنقك . ثم تجاولا بالكلام طويلاً . فقال له خالد : إني قاتلك . قال : أو بذلك أمرك صاحبك ! قال وهذه بعد تلك ، والله لأقتلنك» .

وفي رواية لصاحب الخزانة (١ : ٢٣٧ طبعة بولاق) عن رسالة لأبي رياش أحمد بن أبي هاشم القيسي أن أبا بكر بعث خالد بن الوليد «وأمره أن لا يأتي الناسَ إلاّ عند صلاة الغداة ، فمن سمع فيهم مؤذناً كفّ عنهم ، ومن لم يسمع فيهم مؤذناً استحلهم ، وعزم عليه ليقتلنّ مالكا إن أخذه » وأن خالداً لما أخذ مالكا قال له : « يا ابن نويرة هلمّ إلى الاسلام . قال مالك : وتعطيني ماذا ؟ قال : ذمة الله وذمة رسوله وذمة أبي بكر وذمة خالد بن الوليد . فأقبل مالك وأعطاه بيديه ، وعلى خالد تلك العزمة من أبي بكر . قال : يا مالك إني قاتلك . قال : لا تقتلني . قال : لا أستطيع غير ذلك . قال : فأت ما لا تستطيع إلاّ اياه . فقدمهُ إلى الناس فتهيبوا قتله . وقال المهاجرون : أتقتل رجلاً مسلماً ! غير ضرار بن الأزور الأسدي من بني كوز ، فانه قام فقتله » .

فهذه الروايات وغيرها تدل على أن خالداً لم يقتل مالكاً إلا بعد حوار وجدال ، وأنه لم يقتل خطأ في فهم الأمر بالدفء كما تزعم الرواية الأولى . وان كان في الرواية الأخيرة ما يفهم منه أن خالداً أمّن مالكاً وأعطاه الذمة ، فيكون قتله بعد ذلك غدراً ، ولكنها لا تدل هي ولا غيرها على أنه عاد إلى الاسلام وأقر بالزكاة . وهذه الرواية تساير ما روى

ابن خلكان وغيره أن متمم بن نويرة جاء إلى أبي بكر يستعديه على خالد ويعتب على أبي بكر ، قال ابن خلكان : « فلما بلغه مقتل أخيه حضر الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى الصبح خلف أبي بكر الصديق ، فلما فرغ من صلاته وانفتل في محرابه ، قام متمم فوقف بحذائه واتكأ على سِيَة قوسه ، ثم أنشد :

نِعْمَ القتيلُ إذا الرياحِ تناوحتْ خلفَ البيوت قَتلتَ يا ابن الأزْوَرِ
أَدعوتَهُ بالله ثم غدَرْتَهُ لو هو دعاك بذمةٍ لم يَغْدِرِ

وأومأ الى أبي بكر ، فقال : والله ما دعوتُهُ ولا غدرتُهُ » .

وأكثر الروايات وأرجحها تدل على أن خالداً كان موقناً من ردة مالك ، وإصراره على منع الزكاة ، ولم توجد رواية قط تثبت إثباتاً قاطعاً أن مالكاً رجع عن ردته ، وأعطى مقاده مخلصاً للدين ، وإنما أعطى مقاده مغلوباً على أمره ، وكان يرجو أن يضع يده في يد أبي بكر لعله يجد عنده عطفاً أو ليناً ، فلم يمكنه خالد من ذلك ، وأخذه بالعزم وقتله .

وهذا متمم أخو مالك لم يدَّع قط أن أخاه قتل بعد توبةٍ ، إنما ادعى أن خالداً غدر به ، بل هو يدعي في شعره أن الغدر كان من ضرار بن الأزور ، وانما أشار الى أبي بكر أن كان هو الأمير الأكبر ، فهو المسؤول عن أعمال عماله ، خالدٍ فمن دونه . ولو أيقن متمم أن أخاه تاب عن ردته وأقرَّ بالزكاة كما أقرَّ بالصلاة ، لكان له قول غير هذا القول ، وشأن غير هذا الشأن . وكذلك كان قوله حين قال له عمر : «لوددت أنك رثيت أخي زيداً بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك ، فقال : يا أبا حفص ، والله لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك ما رثيته . فقال عمر : ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيته» (ابن خلكان ١ : ٢٢٨ والاغاني ١٤ : ٦٨) فهذه الرواية تدل على أن متمماً لم يكن يجزم بأن أخاه مات مسلماً ، إن لم تدل على معرفته بأنه قتل في ردته . لأن زيد بن الخطاب ، أخا عمر بن الخطاب ، قتل شهيداً يوم اليمامة ، فيشير متمم إلى هذا ، أن زيداً صار الى الجنة ، إذ قتل شهيداً مسلماً ، ويشك — على الأقل — في ان مصير أخيه مالك كمصير زيد .

فلم يك خالد متجنياً ولا عادياً ، وإنما كان حازماً سريع الفصل ، يعرف ما يأتي وما يدع ويرى الاسلام في خطر من دعاة الردة ، ويرى الموقف على حقيقته بنظرة رجل الحرب ، ويعرف عواقب التردد او التهاون ، ويعرف خصمه مالكاً ، ويعرف قوته وأثره في قومه ، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائب . فلن يؤخذ على خالد ، إن كان عليه فيما أتى مأخذ ، إلاّ أنه تسرَّع ، أو تأول فأخطأ ، ولا حرج .

وأما ما يرجف به المرجفون ، من أنه إنما صنع هذا بمالك ، رغبةً في امرأته ليلى بنت

سنان، وأنه كان بينهما هوًى في الجاهلية، فما نظنه إلاّ من نسج الخيال، ومن أقوال الأعداء المغرضين. فالثابت ان خالداً أخذ ليلى سبياً بعد مقتل زوجها، وأنه بنى عليها بعد انقضاء طهرها، وبعض الرواة يعبر عن هذا بالزواج، ففي الطبري (٣ : ٢٤٢) «وتزوّج خالد أم تميم ابنة المنهال — هكذا سميت في هذه الرواية — وتركها لينقضي طهرها، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعاره» وهذا تعبير شاذ يذهب الثقة بهذه الرواية وأمثالها. فان كراهة العرب النساء في الحرب — إن صحت — لا تكون حجة في الاسلام، وهو تشريع أُنفُ، لا يقرّ كثيراً من تقاليد العرب في الجاهلية، بل ينهاهم عن أكثر ما كانوا عليه وما كان عليه آباؤهم من قبل.

والظاهر من سياق الروايات في الوقعة وما دار حولها، أن خالداً سبى نساء القوم، أي أخذهنّ رقيقاً غنيمة، كحكم الاسلام في حرب الكفار والمشركين. واصطفى لنفسه من السبي امرأة مالك، والاسلام يجيز ذلك، وأنهُ استبرأها بحيضة واحدة، ثم دخل بها. وهذا عمل مشروع جائز، لا مغمز فيه ولا مطعن، وأن أعداءه والمخالفين عليه رأوا في هذا العمل فرصتهم، فانتهزوها، وذهبوا يزعمون أن مالك بن نويرة مسلم، وأن خالداً قتله من أجل امرأته، وذهبوا ينسجون حول هذا الأكاذيب، حتى بلغوا بذلك عمر، وكان سيء الظن بخالد، ولم تكن بينهما مودة، يقول صاحب الأغاني (١٤ : ٦٦) : «فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب تكلم فيه عند أبي بكر، وقال: عدو الله عدا على امرىء مسلم فقتله ثم نزا على امرأته» وأكثر عمر في ذلك على أبي بكر، حتى قال له: «هبه يا عمر تأوّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد». وحمى أبو بكر قائده العظيم من الأراجيف، وقضى على الفتنة بأن أدّى دية مالك، وكتب الى خالد برد السبي (الطبري ٣ : ٢٤٢) فهذا من أبي بكر سياسة واحتياط، فان كان القوم قد تابوا ورجعوا إلى الاسلام، كما يزعم خصوم خالد والمخالفون عليه، فالدية للقتل الخطأ، والسبي يرد على أهله، وإن تكن الأخرى لم يكن بذلك بأس.

وتجري بعض الروايات بأن أبا بكر أمر خالداً أن يفارق امرأة مالك (الاصابة ٦: ٣٦-٣٧) ولكني لا أظنها رواية ثابتة، فان أكثر الروايات على أن أبا بكر حين جاءه خالد واعتذر اليه، عذره «وتجاوز عنهُ ما كان في حربه تلك». (الطبرى ٣ : ٢٤٣ والاغاني ١٤ : ٦٦) ويروي صاحب الخزانة عن وسالة أبي رياش (١ : ٢٣٨) : «وأخذ خالد بن الوليد ليلى بنت سنان امرأة مالك، وابنها جراد بن مالك فأقدمهما المدينة، ودخلها وقد غرز سهمين في عمامته، فكأن عمر غضب حين رأى السهمين، فقام فأتى علياً فقال: إن في حق الله أن يقاد هذا بمالك، قتل رجلاً مسلماً ثم نزا على امرأته كما ينزو الحمار! ثم قاما فأتيا طلحة، فتتابعوا على

ذلك ، فقال أبو بكر : سيف سله الله لا أكون أول من أغمده ، أكلُ أمره الى الله . فلما قام عمر بالأمر وفد عليه متمم فاستعداهُ على خالد ، فقال : لا أرد شيئاً صنعه أبو بكر ، فقال متمم قد كنت تزعم أن لو كنت مكان أبي بكر أقدته به ؟ فقال عمر : لو كنت ذلك اليوم بمكاني اليوم لفعلتُ ، ولكني لا أرد شيئاً أمضاه أبو بكر . ورد عليه ليلى وابنها جراداً » .

ومجموع هذه الروايات وغيرها مما لم نذكر ، يدل على أن امرأة مالك كانت سبياً ، كغيرها من النساء اللائي غنمنَ في الحرب ، وأن خالداً أخذها هي وابنها ملك يمين ، لم يتزوّجها بعد مقتل زوجها ، كما يوهم ظاهر بعض الروايات . وحكم السبي والرقيق في الشريعة معروف ، يخالف حكم الزوجة . فالزوجة إذا توفي عنها زوجها لا يحلّ زواجها إلاّ أن تنقضي عدتها ، إن كانت حاملاً بوضع حملها ، وإن كانت غير حامل تربصت أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا يجوز غير ذلك . فاذا عقد عليها في حملها أو قبل انقضاء الأربعة الأشهر والعشرة الأيام كان العقد باطلاً ، وكان قربانها سفاحاً حراماً . وأما السبي والرقيق فانه يحل ملكها ملك يمين وإن كانت حاملاً ، لأنه لا عدة عليها إذا سُبيت ، وإنما يحرم حرمة قطعية أن يقربها مالكها إن كانت حاملاً قبل أن تضع حملها ، وإن كانت غير حامل حتى تحيض حيضة واحدة .

هذه أحكام بديهية في الشريعة ، لا يعذر أحد بجهلها ، فلا أدري كيف خفيت على المؤلف العلامة الكبير ، حتى جزم في غير تردد ولا احتياط بأن خالداً تزوّج امرأة مالك وأنه « نزا عليها قبل انقضاء عدتها » !!

ولست أتجنى عليه أو أحمل كلامه على محمل سيء ، بل حاولت أن أحمله على أحسن محامله ، لأنزهه عن هذا الذي قال ، فلم أستطع . وها كم نص كلامه في توجيه الخلاف بين أبي بكر وعمر ، ثم الاعتذار عن خالد ، قال في (ص ١٥١) ما نصه بالحرف الواحد :

« الرأي عندي في هذا الخلاف أنه كان اختلافاً في السياسة التي يجب أن تُتّبع في هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان مثال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امرئ مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها ، فلا يصح بقاؤه في قيادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ويسيء إلى مكانتهم بين العرب ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثِمَ مع ليلى . ولو صح أن تأول فأخطأ في أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه عمر ، فحسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحدّ . وليس ينهض عذراً له أنه سيف الله ، وأنه القائد الذي يسير النصر في ركابه ، فلو أن مثل هذا العذر نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولكان ذلك أسوأ مثل يضرب المسلمين في احترام كتاب الله . لذلك

لم يفتأ عمر يُعيد على أبي بكر ويلحّ حتى استدعى خالداً وعنّفه على فعلته . أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور وزن . وما قَتْلُ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ في التأويل أو لغير خطأ ، والخطر محيق بالدولة كلها ، والثورة ناشبة في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ، وهذا القائد الذي يُتَّهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التي يُدفع بها البلاء ويُتقى بها الخطر ! وما التزوج من امرأة على اختلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ، إذا وقع ذلك من فاتح غزا فحقّ له بحكم الغزو أن تكون له سَبَايا يصبحن ملك يمينه !! إن التزمُّت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد ، وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة أو يعرضها للخطر » !

ولقد ترون ما أرى ، أن هذا المؤلف لبس رداء المحامي النابه ، وأخذ بقلم الكاتب الحزبي القدير ، وهما صناعتاه المفضلتان ، اللتان مارسهما طول حياته حتى بلغنا به ما بلغ ، وهما اللتان تحملان صاحبهما — عن غير قصدٍ — على أن ينظر للأمر من ناحية واحدة ، فيبالغ فيها حتى يبلغ الغاية في القوة ، حتى إذا ما أراد أن ينظر إليه من الناحية الأخرى غلبته ناحيته الأولى حتى يبلغ الغاية في الضعف !! فلا يكاد يصل إلى تحقيق ، ثم يضطرب في يده ميزان العدل .

وهكذا كان شأنه هنا ، اتّجه به تحقيقه عن غير قصدٍ إلى أنّ عملَ خالد جريمة ، فصوّرها أقوى تصوير ، وخفي عليه الفرقُ بين الزواج والسبي ، وخفي عليه الفرق بين العدّة والاستبراء ، وخفي عليه حكم الاسلام فيمن تزوج امرأةً في عدّتها ، أو قارب ثيباً من الرقيق قبل أن يستبرئها ، وخفي عليه بعد ذلك كثير من مقاصد الاسلام وأحكامه ، ومن خُلق المسلمين الاولين وسيرهم ، فذهب يجزم بأن خالداً « عدا على امرىء مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها » ينسب ذلك الى عمر ، لا يشك فيه ، ويجزم بأن الذي كان من خالد زواج ثم دخول قبل انقضاء العدة ، ثم يصوّر أثر ذلك في قيادة الجيش وفي مكانة المسلمين بين العرب ، ثم يرى رأي عمر أن الحدّ على خالد واجب . فلما أن أراد أن يدافع عن خالد ، ويبرّر فعل أبي بكر في التجاوز عنه ، تخاذل ثم تخاذل حتى جثا على ركبتيه ، فلم يصنع شيئاً ، إلاّ أن أتى بما لا يقره شرع ولا عدل ، لا في دين الاسلام ولا في سائر الأديان ، فقد أتى بما لم يأت به الأوائل !!

وسأزيد الأمر بياناً حتى لا يخفى على من لا يعرف شيئاً من أحكام الاسلام . فقتل المرء المسلم عمداً جريمة من أكبر الكبائر ، يجب فيها القصاص ، لا يملك أحد العفو عنه إلا وليّ الدم من عصبة القتيل وحده ، لا يملكه خليفة ولا ملك ولا دولة . وتزوج المرأة في عدة

زوجها بعد موت أو طلاق ، زواج باطل لا أثر له، وقربان المرأة بسببه زنا ليس فيه شبهة، ويجب فيـه الحدّ ، الرجم على المحصن والجلد على غيره . لا يملك أحد ابداً العفو عنه ، لا صاحب العرض ، ولا المرأة ، ولا الدولة، لا أحد قط . وكذلك حكم قربان الأمة المسبية في الحربّ إذا كانت ثيباً قبل استبرائها بحيضة واحدة . ثم هذه المحرمات القطعيـة البديهية التحريم إذا وقع فيها أحد إنما يجب عليه ما يجب فيها من الحد أو القصاص ، إذا كان لا ينكر أنها حرام . أما إذا أنكر أنها حرام واستحلها فان حكمه في الشريعة أن يكون مرتداً خارجاً عن الاسلام ، وحكم المرتد معروف . وكذلك يجري حكم الردة على من عرف وقوع ذلك وأقره ورآه أمراً هيناً لا إثم فيه أو فيه إثم قليل . لأنه ينكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة .

ثم هذا الدين في عهد أبي بكر وعمر ، كان ديناً فقط ، لم تشبه شائبة السياسة ولا شائبة الدنيا والغرور بها ، وكان هؤلاء الناس إنما قاموا يقاتلون في سبيل الله ، يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ، يقاتلون لترسخ قواعد الاسلام وأخلاقه وآدابه في العرب أولاً ، ثم في سائر الأمم من بعـد . فاذا بدؤوا في أول أمرهم — كما يصوّرهم المؤلف — بالتهاون في أدق شيء عند العربي ، وهو العرض وما يمسّ النساء ، وفي كبيرتين من أكبر الكبائر ، القتل والزنا ، فأنّى يستقيم لهم الدين ، وأنّى يرجون من الله النصر ؟ ثم ممن يكون هذا التهاون ؟ من أبي بكر ؟ حتى يرميه المؤلف بأنه « كان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيـه لمثل هذه الأمور وزن » وأنه « ما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها » !! أتظنون أيها الناس أن يستطيع رجل من عامة المسلمين ، فضلاً عن أصحاب رسول الله ، فضلاً عن أبي بكر ، أن يرى هذا الرأي ، ثم يزعمَ أنهُ مسلم، أو يزعمَ له أحد أنهُ مسلم ؟ !

أبو بكر يقول لعمر « هبهُ يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » وهذا هو الحق ، وتأول خالد واضح لمن فهم شرائع الاسلام وحُقائقه، أيقن من ردة مالك بن نويرة ، ولم يوقن من توبته إلا بما شهد له ناس أنهم سمعوا الأذان في ناحيته، وإلاّ قوله لخالد في بعض الروايات أنهُ مسلم ، ولم يشهد أحد لمالك أنهُ أقرّ بالزكاة ، ولم يقل هو ذلك أيضاً ، بل قال لخالد : « إني آتي الصلاة دون الزكاة » . ثم تفلت منهُ بعض كلمات تنبيء عن إصراره ، فلا يرى خالد مناصاً من قتله ، فتكون نساؤه سبياً بحكم الشريعة، ثم نجد أخاه متمم بن نويرة لا يكاد يرثيه بكلمة تنبيء عن إسلامه ، بل يدّعي غدر خالد وغدر ضرار ، ويصرّح بالفرق بين استشهاد زيد أخي عمر ومقتل مالك أخيه. أفلا يكون في كل هذا عذر ومتأوّل لخالد ؟!

ثم بعد هذا كله تبقى ليلى وابنها في يد خالد ملك يمين ، مدة خلافة أبي بكر ، وبعض

خلافة عمر ، حتى يأتي متمم بن نويرة فيستعدي عمر على خالد ، وقد صار الخليفةَ ووليَّ الأمر ، فلا يعديه عمر ، ويأبى أن يغير حكم أبي بكر ، ولكنهُ يرضيه بأن يردّ عليه امرأة أخيه وابنها . ولسنا نفهم هذا الردّ الا بأن عمر طلب إلى خالد أن ينزل عنهما ، وهما ملك يمينه ، فيرضى ولا يأبى ، استجابةً لرغبة عمر ، لا طاعة لحكمه ، فليس في سلطان أمير المؤمنين أن يأخذ أموال الناس كرهاً ، ولم يكن ذلك من عملهم ولا من خلقهم . أفيظن ظانٌّ أن الصدر الأول من أصحاب رسول الله كانوا يقرُّون خالداً على استبقاء ليلى امرأة مالك ، وهم يعلمون أنها تعاشره بعقد باطل حرام ، كما يصور المؤلف زواجه إياها قبل تمام طهرها ؟! اللهمَّ غفراً .

لشدّ ما أخشى أن يكون المؤلف تأثر بما قرأ من أخبار نابليون وغيره من ملوك أوروبة ، في مباذلهم وإسفافهم ، وبما كتب الكاتبون من الافرنج في الاعتذار عنهم لتخفيف آثامهم ، بما كان لهم من عظمة ، وبما أسدوا إلى أممهم من فتوح وأيادٍ ، حتى يظن بالمسلمين الأولين أنهم أمثال هؤلاء فيقول : « إني التزمت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد » ! ! ! وهذا قول يهدم كلَّ دين وكلَّ خلق .

إن هذه النظرية ، نظرية تبرير الجرائم والمنكرات ، بعظمة العظماء ، ونبوغ النوابغ ، وارتفاع الزعماء ، وآثار القادة والكبراء ، نظرية خطيرة ، لا تقوم معها للأمم قائمة ، تنحدر بها إلى مهاوي الشهوات ، وتنتهي بها إلى الإباحية ثم إلى الانحلال ، كما انحلت فرنسة وغيرها من الأمم ، بما استرسل كبراؤهم وزعماؤهم في التبذل والترف ، وتبعهم العامة والدهماء ، (وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً) . ومعاذ الله أن نظن مثل ذلك بالصدر الأول من الصحابة والتابعين ، عهد أبي بكر وعمر ، وسيرهم معروفة ، وآثارهم مشاهدة ، وفضلهم على العالم كله لا ينكر .

وليت المؤلف الفاضل يشرح لنا في هذا الأمر وجهة نظره ، ويبين لنا لحساب مَنْ يقرِّر هذه النظرية الخطرة المدمرة ؟ !

أما قسوة عمر في اتهام خالد عند أبي بكر ، فإنها قسوة الرجل العادل الحازم ، لم يشهد الأمر بنفسه ، ولم يكُ قاضياً فيه ، إنما بلغهُ أمر ، فكان لسان الاتهام ، يقرِّر ما سمع ويعرضهُ على الخليفة ولي الأمر ، والخليفةُ بما يملك من سلطة القضاء ، سأل خالداً عما نسب إليه ، وسمع قول أبي قتادة وغيره ، ثم حكم بما استبان له ، فعذرَ خالداً ، ولم يجد في عمله موضعاً للقصاص ، ولا موجباً للحدّ . فكان حكماً قاطعاً ، لا يجوز لعمر ولا لغيره أن يستأنف النظر فيه ، ولذلك قال لمتمم في خلافته « لا أرد شيئاً صنعهُ أبو بكر ، فقال متمم : قد كنت تزعم

أن لو كنت مكان أبي بكر أقدته به ، فقال عمر : لو كنت ذلك اليوم بمكاني اليوم لفعلتُ ، ولكني لا أرد شيئاً أمضاهُ أبو بكر » . وما نظن عمر يفعل ما كان يريد لو كان خليفةً ذلك اليوم ، إنما هو يبين عن رأيه في أمر قد نظر إليهِ من جانب واحد ، هو جانب الاتهـام ، ولعلهُ لو قد سمع الطرف الآخر ، طرف الدفاع ، ونظر إلى الأمر من الجانبين كما نظر إليهِ أبو بكر ، لانتهى إلى ما انتهى إليه حكم أبي بكر . وفي مثل هذا تختلف أنظار القضاة ، ويختلف اجتهاد المجتهدين ، في وزن الأدلة ، وتقدير البراهين . فلن تكون كلمة عمر وحدها حجة على خالد ، تثبت عليهِ إجراماً لم يثبت عند الحاكم ، وقد برَّأه الحاكم مما نسب إليهِ ، ولن تكون كلمة عمر وحدها حجة على أبي بكر ، حتى يُتهم بالتهاون في شأن جرم يوجب الحدّ أو القصاص ، وبأنهُ كان يتزمت في تطبيق التشريع على العامة والدهماء ، ولا يتزمت في تطبيقهِ على النوابغ والعظماء ! ! كفعل ساسة هذا العصر !

ومع هذا كله فان عمر رجع عن كل ما كان يظن بخالد وينسبهُ إليهِ ، فقد روى ابن سعد في الطبقات الكبير (٧/٢/١٢١) باسناد من أصح الأسانيد التي يصححها المحدّثون في رواية السنّة أنهُ : « لما مات خالد بن الوليد قال عمر : يرحم الله أبا سليمان ، لقد كنا نظن بهِ أموراً ما كانت » وليس بعد هذه الشهادة شهادة ، من رجل كان من أشدّ الناس قسوة على خالد ، وكان لسان الاتهام في هذه الوقعة بعينها . رضي الله عنهم جميعاً .

وبعد : فان كتاب المؤلف لا يزال مع هذا كتاباً قيماً ، جديراً بما نال من تقدير ، أفدنا منهُ فوائد جمة ، وأعجبنا بكثير من أبحاثه ، ووقفت عند كثير من روائعهِ ، مغتبطاً متذوّقاً ما فيها من بلاغة ، مهتزّاً بما صدقت في الوصف ، وبما احتوت من قوة التصوير . ومن أحسن كلماته التي أوفى فيها على الغاية ، وأطلتُ الوقوف عندها ، كلمة أقتبسها هنا ، لتكون دستوراً لكثير من الباحثين والكاتبين ، علهم ينتفعون بها ، ويتعظون بما وعظهم المؤلف فيها . قال (ص ٣٣) : «فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء النـاس ويرونها ميناً باطلاً وحديث خرافة ، ثم يكتمون ذلك أو يتظاهرون بنقيضهِ ، التماساً للعافية ، وجرّاً للمنفعة ، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد هذا النّفاق في سواد الناس وعامتهم ما تجده في المثقفين منهم ، بل إنك لتجدهُ فيمن نصبوا أنفسهم لعامة النـاس والابانة لهم عن وجه الحق في الحياة » .

أحمد محمد شاكر

التغذية الصحيحة

الناس جميعاً يأكلون ، ولكن هناك بين الآكلين من يبني صرح قوته بطعامه ، وبينهم من يحفر بأسنانه قبره .

والفريق الأول فئة قليلة ، هداها الله سبحانه ، الى فنون التغذية الصحيحة فعرفوها ، واتخذوها عقيدة لهم ، لا يحيدون عن اتباع نظمها لسبب من الاسباب مؤمنين بأن لا طريق للصحة الا بها ، ولا سبيل للقوة بغيرها ، موقنين بأنها ينبوع حياة جار يبعث في المستقي منه ماء الشباب دواماً .

وأما الفريق الثاني ، وهم غالبية الناس ، فقد انحدروا الى طريق معوج فيه امتلاء لبطونهم بضروب التغذية الخاطئة ، فمضوا بأقدام سريعة نحو المرض الدائم ، ومن ثم الى مقابرهم الأنيقة التي شيدوها بما ابتلعوه من أطعمة ميتة ذات ألوان شهية قتالة ، وبما شربوه من سموم طلية فتاكة .

وهذه الفئة الكثيرة نسيت أن الطريق الى الصحة مستقيمة معبدة سهلة ، لا مفاوز فيها ولا منعطفات ، وليس اليها غير مسلك واحد ، وهو العود الى الطبيعة في هوائها وشمسها ومائها ، في ثمارها وخيراتها وجمالها . وقد فاتهم أيضاً أن سر الصحة والقوة والسعادة هي في أحضان الطبيعة عندما نهرع اليها في مرحنا ولعبنا ، ورياضتنا وراحتنا ، ثم في آخر اليوم لما نهجع الى المنام المبكر الهادىء ، ونحن من الطبيعة سكارى ، قد احتسينا من كؤوسها رحيقاً وسحراً حلالا .

ان الطبيعة وحدها هي المعلم الأول الذي يلقننا ان الصحة ثروة من السماء ، لها أرباحها الطائلة التي نستطيع أن ننفق منها الى التسعين من العمر ، لا بل وأكثر ، والطبيعة هي التي تعلمنا ان لا ننفق صحتنا هدراً ، والا كنا من المرضى العليلين .

وعندي لو ان المدنية سمعت لصوت الطبيعة المنادي الى ما فيه نفع البشرية ، فوجهت هذه المدنية عنايتها الى فنون التغذية الصحيحة ، وكيفية نشرها بين الناس كما وجهتها الى تلك المخترعات الحديثة لسعدت الانسانية بهذي أكثر من سعادتها بتلك . الا أن الله سبحانه قد أراد بالانسان أن يحرر من عبودية التغذية الخاطئة ، فأرسل شعاعاً من رحمته ، دفع بعض عباقرة أمريكا أمثال « لصت » و « هوسر » و « بنجامين » فأخذوا على عواتقهم اداء رسالة مقدسة ، وبدأوا حركة مباركة نحو الدعاية للتغذية الصحيحة ، وشاء الله تعالى ، أن يكلل بالفوز صادق مسعاهم ، والحق انا مدينون لهذه المدرسة الحديثة بكل ما غذونا به عقولنا من هذا الفن النافع المفيد .

والتغذية الصحيحة يجب أن تتكون من مواد زلالية ونشوية وسكرية ودهنية وعناصر معدنية وفيتامينات والنسبة الصحية لهذه المواد كما توصل اليها الدكتور « دوجلاس تومسون » في أبحاثه يجب أن تتكون من ١٠ ٪ مواد زلالية و ١٠ ٪ مواد سكرية ونشوية و ١٠ ٪ مواد دهنية و ٢٠ ٪ فاكهة و ٥٠ ٪ خضروات على أن يكون ٩٠ ٪ من مجموع هذه الاطعمة قلوياً و ١٠ ٪ منها حمضياً .

والمواد الزلالية هي بانية الأنسجة العضلية وتوجد في اللحم والسمك والبيض واللبن والجبن والبقول والمواد النشوية والسكرية وتولد النشاط والحركة وأنفعها ما كان في الخبز الكامل والعسل الأسود والنحل والمواد الدهنيــة وتولد الحرارة وهي في الزبد والزيت وأما العناصر المعدنية والفيتامينات فهي أهمها جميعاً حيث تقوم على دعائمها أسس التغذية الصحيحة وهي في الفاكهة والخضر والبقول وأنواع البندق والفواكه المجففة واللبن ومستخرجاته وهذي جميعها قوام الغذاء الكامل الصحي .

وكل من يروم حفظ صحته ، أو ينشد عودها من جديد ، عليه أن يحرص أشد الحرص على أن تكون هذه الأغذية بين طعامه ينتقي منها ماينتقى اليوم ، ويصنف منها مايصنف لآخر

فهمي عطا الله

مساجد دمشق

مسجد المدرسة السامرية

بالشاغور بدمشق

هذا هو المقال الثاني في تحقيق « مساجد دمشق » وتعريفها الى القارىء وتصحيح الاخطاء التي وقعت في كتاب « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » الخاص بمساجد دمشق الذي ألفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ أسعد طلس

يقول ابن عبد الهادي في ص ١٠٧ :

«وثمّ مساجد لم يذكرها (اي ابن شداد المؤرخ الذي ينقل عنه ابن عبد الهادي) . . . الثامن : مسجد في مدرسة ابن الصاموي » اه .

• • •

ولم يعلق الأستاذ أسعد على ذلك بشيء مطلقاً فلم يخبرنا أين كانت تقع هذه المدرسة بمدينة دمشق ؟ ومن هو الصاموي (بالصاد والواو) الذي أنشأها ؟ وأي نوع من المدارس أو المعاهد كانت ؟ وفي أي عهد بنيت ؟ الى غير ذلك من المعلومات التي لا غنى عنها لقارىء كتابه، والتي يعتبر تحقيقها أول الواجبات المفروضة على من يتصدى لنشر مخطوط يكاد يكون سجلاً احصائيًّا لمساجد دمشق ومحلاتها لا يمكن لغير اخصائي في دراسة آثار دمشق ومعاهدها وخططها وتاريخها الانتفاع به الاّ اذا وضعت تحت نظره جميع البيانات التي تجلو له هذه النقط جميعاً بحيث يستطيع ان يفيد من الكتاب الفائدة المقصودة بنشره والتعليق عليه والتذييل له .

والآن نتقدم لبيان ذلك فنقول :

لم نجد بين جميع مساجد دمشق ومعاهدها وآثارها القديمة القائمة حتى الآن معهداً واحداً باسم ابن الصاموي هذا وراجعنا جميع اوراقنا ومذكراتنا عن حارات دمشق ومحلاتها وأزقتها ودروبها فلم نجد واحداً منها يحمل هذا الاسم . ولم نجد أحداً من المؤرخين او الجغرافيين او الأدباء ذكره أو أشار اليه ، فرجعنا الى الفصل الذي ورد فيه ذكر هذا المسجد في كتاب ابن عبد الهادي فوجدنا الرجل بدأ من صحيفة رقم ١٠٣ يذكر مساجد حي الشاغور بجميع محلاته بما في ذلك المساجد الموجودة بجهة القبلة وباب الصغير فيقول :

الاول : مسجد على باب الصغير ملاصق للسور يعرف بمسجد شجاع الخ .

الثاني : مسجد يعرف بعبد الملك بالشاغور .. الخ .

الثالث : مسجد العنابة بالشاغور الخ .

حتى يصل الى المسجد الثالث عشر فيقول : مسجد يعرف بقبلية النور خارج باب الشاغور ثم يذكر مساجد مقبرة باب الصغير وقبور آل البيت .

ويقول في المسجد الرابع والعشرين : مسجد السماق شرقي الشاغور الخ .

حتى ينتهي الى المسجد السادس والعشرين وهو آخر ما ينقله عن ابن شداد ، ثم يأخذ في ان يضيف من عنده مالم يذكره ابن شداد من مساجد هذه المنطقة فيقول :

الاول : مسجد في المقبرة (اي مقبرة باب الصغير) يعرف بقبر ويس الخ .

ثم يعدد مساجد اخرى بهذه المقبرة حتى يصل الى المسجد الخامس فيقول :

الخامس : مسجد بالمدرسة التي في اول درب الشاغور من جهة باب الجابية .

السادس : مسجد في التربة التي تحت ذلك من الغرب .

السابع : مسجد تجاه ذلك من الشرق .

الثامن : مسجد في مدرسة ابن الصاموي الخ . اه

إذن كانت هذه المدرسة بلا شك في حي الشاغور الى شرق باب الجابيسة . فهل كانت في هذه المنطقة مدرسة او تربة او دار حديث او دار قرآن او رباط او خانقاه او مسجد او زقاق يحمل اسم ابن الصاموي هذا ؟

لقد وجدنا ابن العماد الحنبلي يقول في كتابه شذرات الذهب ج ٥ ص ٢١٣ في وفيات سنة ٦٤١ ه ما نصه :

« فيها (اي توفى في سنة ٦٤١ ه) الصدر الرئيس جمال الدين محمد بن عقيل بن كروس محتسب دمشق . كان كيساً متواضعاً دفن بداره بدرب السامري . والله اعلم » اه

ووجدنا النعيمي يترجم لداري حديث كانتا تقعان بحي الشاغور هذا . احداهما المدرسة الكروسية . والثانية المدرسة السامرية ويقول انهما كانتا متجاورتين وان موضعهما كان غربي مأذنة الشحم . يقول النعيمي ما ملخصه :

فصل دار الحديث الكروسية :(١) غربي مأذنة الشحم . قال الحافظ ابن كثير (٢) : في سنة

---

(١) عن دار الحديث الكروسية انظر الدارس للنعيمي ج ١ ص ١٣٠ / ١٣٢ (مخطوط) . ومختصر الدارس للعاموي ص ١١ (مخطوط) ومنادمة الاطلال لبدران ج ١ ص ٧٥ و ٧٦ (مخطوط)

(٢) انظر ترجمة محمد بن عقيل بن كروس في ابن كثير ج ١٣ ص ١٦٣ في وفيات سنة ٦٤١ ه . وكذلك في شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٠٣

٦٤١ هـ (توفى) واقف الكروسية محمد بن عقيل بن كروس جمال الدين محتسب دمشق ... وتوفى بداره التي جعلها مدرسة (شافعية) وله دار حديث اهـ

وقال الصفدي في وافيه : المحتسب ابن كروس محمد بن عقيل بن عبد الواحد بن احمد بن حمزه بن كروس جمال الدين أبو المكارم السلمي الدمشقي ... توفى ٦٤١ هـ ، اهـ

وقد عاد النعيمي في باب مدارس الشافعية وعقد فصلاً خاصًّا بالمدرسة الكروسية الشافعية ذكر فيه موضعها كما يلي :

المدرسة الكروسية (الشافعية) (٣) التي إلى جانب السامرية الشافعية » اهـ

أما المدرسة السامرية : فلم يذكرها النعيمي بمدارس الشافعية في فصل خاص وإن كان عنى بترجمتها في دور الحديث قال :

فصل دار الحديث السامرية (٤) : وبها خانقاه وقفها الصدر الكبير سيف الدين ابو العباس احمد بن محمد بن علي بن جعفر البغدادي السامري بفتح الميم وتشديد الراء نسبةً إلى مدينة سر من رأى (سامرًا) وهي بلدة على الدجلة وينسب إليها أيضاً بلفظ السُّرَّمَرِّي وهي إلى جانب دار الحديث الكروسية بدمشق. وكانت داره التي يسكن فيها فدفن بها بعد أن وقفها دار حديث وخانقاه . وكان قد انتقل الى دمشق وأقام بها بهذه الدار مدة. وكانت قديماً تعرف بدار ابن قوام بناها من حجارة منحوتة كلها . وكان السامري كثير الاموال حسن الأخلاق معظماً عند الدولة جميل المعاشرة (٥) له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة. توفى رحمه الله يوم الاثنين ثامن عشر شعبان سنة ست وتسعين وستمائة (٦٩٦ هـ). وقد كان له ببغداد حظوة عند الوزير ابن العلقمي وامتدح (الخليفة) المستعصم وخلع عليه خلعة سوداء سنية . ثم قدم دمشق في أيام الناصر صاحب حلب فحظى عنده أيضاً فسعى فيه أهل الدولة فصنف فيهم أرجوزة فتح عليهم بسببها باب مصادمة (ولعلها مصادرة) الملك لهم بعشرين الف دينار فعظموه جداً وتوصلوا به الى أغراضهم... الخ » . اهـ

---

(٣) عن المدرسة الكروسية الشافعية أنظر الدارس للنعيمي ج ١ ص ٦٤٩ — ٦٥١ ومختصر الدارس للعلموي ص ٤٧ ومنادمة الاطلال لبدران ج ١ ص ١٩٦ . وعن التربة الكروسية أنظر منادمة الاطلال ج ٢ ص ٤٣٦

(٤) عن دار الحديث السامرية وبها خانقاه أنظر النعيمي ج ١ ص ٩٤ والعلموي ص ٩ وبدران ج ١ ص ٥٦

(٥) في النعيمي : جميل الاشعار . وقد صححناها عن ابن كثير (ج ١٣ ص ٣٥١) الذي ينقل عنه النعيمي هذه الترجمة حتى تستقيم العبارة لانه يقول بعد ذلك « له أشعار رائقة » فتكون صحة العبارة هكذا : جميل المعاشرة له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة ... الخ

وقد ترجم له ابن كثير في وفيات (٦) سنة ٦٩٦ كما ذكر في حوادث (٧) سنة ٦٨٦ قصة طلبه إلى مصر ومصادرته بأموال باهظة.

* * *

لم يبق هناك أقل شك في أن مسجد المدرسة الصاموية الذي يعنيه ابن عبد الهادي هو المدرسة الشافعية (والخانقاه ودار الحديث) السامرية المجاورة لدار الحديث (والمدرسة الشافعية) الكروسية . وان هذا السامري هو الذي أطلق اسمه على الزقاق الذي كانت تقع فيه المدرسة الكروسية . فأين يوجد هذا الزقاق الآن بدمشق ؟

إننا إذا سرنا الآن بسوق مدحت باشا متجهين نحو الشرق حتى تقاطعه مع شارع سوق البزورية واستمررنا في طريقنا في شارع مأذنة الشحم حتى الناصية الجنوبية الغربية لخان النحاسين فاننا نجد طريقاً يسمى زقاق السلمي متجهاً الى الجنوب ممعناً في حي الشاغور

وقد وجدنا الصفدي يقول في وافيه : ان المحتسب بن كروس محمد بن عقيل صاحب المدرسة الكروسية كان يسمى جمال الدين أبا المكارم السلمي .

فلا شك إن هذا الزقاق الواقع « غربي مأذنة الشحم » هو نفسه الذي كانت تقع فيه مدرسة ابن كروس السلمي وهو نفسه درب السامري الذي ذكره ابن العماد الحنبلي بقوله « ودفن ابن كروس بداره بدرب السامري » . وهذه الدار هي التي يقول النعيمي ان ابن كروس جعلها مدرسة شافعية ودار حديث .

ويستنتج من ذلك جميعه إن هذا الدرب سمي أولاً باسم السلمي حين سكنه وأوقف فيه مدرسته ودفن بها سنة ٦٤١ هـ . ثم لما بنى السامري مدرسته بجوار المدرسة الكروسية ودفن بها سنة ٦٩٦ هـ سمي هذا الدرب باسم السامري فكلا الاسمين في نظرنا كانا يطلقان على درب واحد . على إن اسم السامري قد زال من أفواه العامة وبقى اسم السلمي . والظاهر أن ذلك لصعوبة نطق الأول وسهولة الثاني على الألسن . والآن لا يزال هذا الزقاق يسمى باسم السلمي وباسم الدسوقي نسبة الى المرحوم الشيخ الدسوقي » (٨)

* * *

ماذا تبقى من هاتين المدرستين للآن :

يقول الشيخ عبد القادر بدران عن دار الحديث الكروسية في كتابه منادمة الأطلال

---

(٦) ابن كثير جـ ١٣ ص ٣٥١ (٧) ابن كثير جـ ١٣ ص ٣١٠

(٨) يقول العلموي في مختصر الدارس ص ٩ في فصل دار الحديث السامرية « هي بالقرب من محلة مأذنة الشحم بزقاق المرحوم الشيخ المسلك الدسوقي » اهـ . مما يدل على ان هذا الدرب كان يسمى باسم الدسوقي في عهد العلموي المتوفى سنة ٩٨١ هـ .

جـ ١ ص ٧٥ و ٧٦ : « هذه المدرسة ذهبت أحاديثها إلاّ من القرطاس وضمّتها أيدي المختلسين إليها . . . ولقد خفي عليّ مكانها أولاً ثم ظفرت بهِ فاذا هي بمحل يقال له الآن زقاق السلمي غربي مأذنة الشحم . ولما تأملتها وجدت حائطها الشرقي باقياً وبه بركة ماء (أي سبيل) مبنية بحجارة ضخمة على طراز قديم وهندسة معجبة ونقوش بديعة وعن يمينها ويسارها عمودان لطيفان . . . وصدرها من الحجر المعجن وبابها لم يزل باقياً إلاّ انه مسدود وبعد ثماني خطوات من البركة الى الجنوب حجرة لطيفة بلا سقف ولا شباك على الطريق وبها قبر مصبوغ بالمغرة يقولون انه قبر السلمي وعن شمالها أثر في الجدار ينادي على أنهُ كان مدرسة ولعلها أختها السامرية التي أصابها ما أصاب أختها « اي الكروسية » اه

وقال في مختصر المنادمة[٩] عن هذه المدرسة بعد ان لخص ما تقدم : ولعلها هي بيت السباعي وقد أخبرت أن المحراب كان في هذه الدار »

وقال عن دار الحديث السامرية في منادمة الاطلال جـ ١ ص ٥٦ :

« هي بالقرب من مأذنة الشحم بزقاق المرحوم الشيخ الدسوقي وبها خانقاه أيضاً وهي التي الى جانب الكروسية ... وهذا الزقاق مشهور الآن بزقاق السلمي وهو مقابل للزقاق الذي هو وراء سوق البزورية من جهة الشرق . وقدْ صارت الآن داراً للسكنى فامحى أثرها واندرست أطلالها ولم يبق منها سوى أحجار في أساس جدار تشير اليها ... » اه

• • •

اننا نود قبل ان نمضي في بحث بقايا هاتين المدرستين ان نترحم على الاستاذ الفاضل المرحوم الشيخ عبد القادر بدران الدوماني الدمشقي وان نذكره بالخير ونخصهُ بالثناء لجهده العظيم في تحري الدقة في تحقيق وضبط مواقع الآثار بدمشق . ولا شك انه عانى ما عانيناه من المتاعب والصعاب في هذا السبيل بمدينة دمشق حيث يكثر الاعتداء على المباني الأثرية واختلاسها وتشويهها واضاعة معالمها عمداً من النهابين والمختلسين الذين يتفننون في محو الكتابات والنقوش الأثرية بازالتها او تغطيتها بطبقة من الطين او الاسمنت او رفعها من مكانها وإعادة بنائها بالحائط بحيث يخفى وجهها المنقوش بداخل الحائط . وفي سد الأبواب والنوافذ القديمة سدّاً كليًّا او جزئيًّا بحيث تخالف الحالة التي كانت عليها او فتح فتحات جديدة واخفاء معالم الجدران القديمة المبنية بالحجارة الضخمة بازالتها او أجزاءٍ منها او طليها بطبقة تخفي البناء الأصلي او ازالة الزخارف العلوية والشرافات والمقرنصات والقباب لبناء الطبقات العليا الى غير ذلك من الأساليب والطرق والوسائل التي ظلّ العمل جارياً بها طوال قرون

---

(٩) مختصر المنادمة للشيخ عبد القادر بدران (مخطوط)

عدة حتى عهدٍ قريب ، حتى زال من الوجود كثير من الآثار الجميلة الهامة التي كانت تزدان بها دمشق ويتغنى بعظمتها وبهائها المؤرخون الذين شاهدوها وترجموا لها وينعيها ويتحسر على زوالها من أتوا بعدهم ممن آلمهم اختلاسها او تشويهها او هدمها وازالتها .

ونستمر في بحثنا فنقول :

إننا إذا دخلنا في زقاق السلمي ونظرنا إلى اليمين وجدنا بالصف الغربي بالمنازل رقم ١٠ و ١٤ و ١٦ و ٢٢ ما يلفت نظرنا.

فنجد في المنزل رقم ١٠ فتحة قد بنيت جوانبها بالحجارة الضخمة ولها عتب ضخم أيضاً ونجد الجدار بجوارها قد بني من نفس نوع الحجارة مما يميزها عن بقية الجدران والأبنية المجاورة . ثم نجد جداراً أثرياً سفلياً يبدأ من المنزل رقم ١٤ ويستمر جنوباً حتى المنزل رقم ١٦ ومن بعده السبيل الجميل الذي يشير إليه بدران يتلوه جدار أثري هو واجهة مدفن الشيخ السلمي ومن بعده المنزل رقم ٢٢ المعروف ببيت السباعي .

وقد ذهبنا إلى هناك وتقابلنا مع صاحب هذا المنزل فسمح لنا حضرته بمعاينة المدفن فوجدناه ساحة سماوية صغيرة بها قبر وواجهتها على زقاق السلمي من الحجارة الضخمة وبها باب ونافذة يتلوها من الشمال السبيل أو البحرة البديعة الزخارف يحف بها عمودان جميلان ثم يستمر الجدار الأثري من أسفل من نفس نوع هذه الحجارة والبناء في المنزل رقم ١٦ حتى المنزل رقم ١٤

أما المحراب الذي يقول الشيخ بدران إنه قيل له انه ببيت السباعي فقد سألنا عنه فأجابنا صاحب البيت (أو ساكنه الذي تقابلنا معه) بالنفي ولم نجد له أثراً بالمدفن الذي به القبر. ولا استطعنا بأية وسيلة للتحقق من وجوده ببيت السباعي أو غيره من الجيران لما هو معلوم من صعوبة دخول المنازل الاسلامية لشدة الحجاب المفروض على النساء فيها ولما يتوجسه أصحابها من شرّ من جراء مثل هذه الابحاث الأثرية في أبنية قديمة لما قد تنتهي إليه من نتائج يخشاها أصحاب هذه الابنية وقطانها .

هذا هو كل ما تبقى من البناء أو الابنية الأثرية التي كانت تشغل المنطقة الممتدة من المنزل رقم ١٠ حتى آخر المنزل رقم ١٦ وربما كانت تمتد إلى أبعد من ذلك شمالاً أو جنوباً ولكنها قد اختلست وأدخلت في دور السكنى

ولكن هل يمكن مع ذلك ان نجد من الظواهر المعمارية أو الزخرفية أو الحقائق التاريخية ما يساعدنا على الحكم بان هذه الجدران هي حقيقة البقية الباقية من المدرستين الكروسية والسامرية ؟

ان البراهين والحقائق التي يمكن ان تساعدنا في اثبات ذلك هي :

أولاً : البرهان التاريخي المستمد من رواية النعيمي عن موقع هاتين المدرستين متجاورتين «غربي مأذنة الفحم» وهذا ينطبق تماماً على الموقع الحالي لبقايا المدرستين المذكورتين بزقاق السامري (على رواية ابن العماد الحنبلي) المعروف باسم زقاق السلمي أو الدسوقي. (على رواية العلموي).

ثانياً : الرواية المتواترة عند أهل الحي بأن هذا القبر هو قبر السلمي. وقد سمي الزقاق باسمه. وقد كان صاحب المدرسة الكروسية يسمى محمد بن عقيل السلمي (كما يقول الصفدي) مما يدل على أن المدرسة الكروسية كانت بهذا الموضع. لما جرت به العادة في ذلك الوقت من وقف المنازل الخاصة مدارس ودفن أصحابها بها وتسمية الأزقة والدروب باسماء (الأولياء) المشهورين بها .

ثالثاً : ان هذه البحرة (او السبيل) المجاورة للمدفن على امتداد الواجهة بزخارفها البديعة وخاصة الجزء العلوي منها تذكرنا بالطرز الزخرفية التي كانت سائدة بدمشق في منتصف القرن السابع الهجري . وهي تعد في نظرنا — بحسب ما وصل اليه علمنا — أجمل بحرة من العصر الأيوبي بدمشق وغيرها من المدن الاسلامية العديدة التي أتيحت لنا فرصة زيارتها ودراسة آثارها . ولا تشبهها في طرازها وزخرفتها بقية البحرات الأخرى بدمشق التي أنشئت بعد ذلك في العهدين المملوكي والتركي . فان هذه البحرات قد خضعت لأساليب العمارة وفنون الزخرفة الغالبة في هذين العهدين من أمثال البناء بالمداميك الرفيعة من الحجر الابلق (الأبيض والأسود أو الأصفر والأسود على التعاقب) أو زخرفة أجزائها العليا بمقرنصات دقيقة بديعة مدلاة أو تحلية العقود بصنج على شكل الوسائد المتراصة أو نقش الشارات والرنوك عليها او تحليتها بالنقوش الهندسية او العناصر النباتية او الفسيفساء الجصية او الخطوط المملوكية او العثمانية الخ . . علاوة على ان الكثير من هذه البحرات مؤرخة من العهدين المملوكي والتركي . مما لا يجعل هناك اي شك في نسبتها للعصور التي بنيت فيها .

رابعاً : ان البناء بالكتل الضخمة والمداميك العريضة كان من مزايا العمارة الأيوبية وان العصرين المملوكي والتركي يتميزان بالبناء بالحجر الأبلق والمداميك الرفيعة فيما عدا الأبنية الحربية والتحصينات . وقد رأينا ان واجهة مدفن السلمي والجدار الى جانب السبيل وبقايا الجدار السفلي الممتد حتى المنزل رقم ١٤ مبنية جميعاً بمداميك عريضة ايوبية مما يثبت ان هذا الجدار هو من بقايا هاتين المدرستين .

وخلاصة القول ان المدرستين الكروسية ، والسامرية كانتا تقعان بزقاق السلمي هذا ، الأولى الى الجنوب وبها البحرة (أي السبيل) والثانية الى الشمال منها .

وان الاسم الصحيح الذي كان يجب أن ينشر في كتاب «ثمار المقاصد» هو ابن السامري

سلالة تتهيأ للانقراض

سكان أوستراليا الاصليون من أقدم السلالات البشرية . يعيش هذا الانسان كما كان يعيش منذ آلاف من السنين ، ويقول الاجياليون : Arthropologists وهم الذين يبحثون في طبائع اجيال البشر انه ربما لا يتغير فيظل كما هو حتى ينقرض ويفنى من الوجود . وقد لا يطول انتظارنا وقوع هذا الحادث .

عند ما استعمرت هذه القارة أخذ ذلك الانسان ينطوي مرتداً نحو الشمال شيئاً بعد شيء حيث اتخذ من تلك الانحاء معاقله الاخيرة ازاء المدنية . وفي أوستراليا الآن نصف مليون من هذه السلالة ، غير ان هذا العدد آخذ في التناقص سنة بعد سنة ، ولا يزال أفرادها عاكفين على عاداتهم القبلية واحتفالاتهم الدينية وشرائعهم الخاصة بالاسرة والتعامل .

وسوف يظلون على نزعتهم في مهاجمة البيض وقتلهم اذا خيل اليهم ان هنالك ما يمس شرائعهم القبلية من النظامات . ومنذ عهد قريب وقع قليل من البيض في قبضة هؤلاء البدائيين، فدفعوا ثمن تدخلهم غالياً جداً ، إذ فقدوا حياتهم جزاء ما أرادوا بهم من اصلاح . وشاءت حكومة أوستراليا أن تحاكم المجرمين بمقتضى قوانين البيض المدنية ، ولكن اتضح ان رجال هذه القبائل الذين قدموا للمحاكمة ، لم يفقهوا مما يجري من حولهم شيئاً . وظهر انهم يعتقدون انه من حقهم أن يقتلوا اذا مست عاداتهم بصورة من الصور .

ان قانون « بقاء الاصلح » هو القانون السائد في حياة هذه القبائل . وعلى شبابهم أن يثبت بلوغه طور الرجولة بأن يقتل وأن ينهب ويغتصب . وليس لونهم السواد ، بل هم الى الصحمة : وهي بضم الصاد سواد الى صفرة أو غبرة أو سواد قليل . فاذا أزيل ما على البدن من الشحم المفرز مع العرق ، كان لونهم أغبر أو أحمر الى الدكنة . وليس فيه شيء من الجمال . أما لون عيونهم فالسواد الى الغبرة ، وبياضها الى الصفرة ، وهم سلالات بدوية متنقلة وعيشهم بالصيد . فلم يزرعوا أرضاً ولم يفلحوا شيئاً من محاصيل الزراعة . ويأكلون النمل الى جانب ما يأكلون من الكناجر والخنازير البرية والثعابين والفيران وعسل النحل وكل ضروب الحشرات . فاذا فعل بهم الجوع أكل بعضهم بعضاً .

وقد يعمل بعضهم في مرابي الحيوان التي يملكها البيض ، غير انهم لا يلبثون غير قليل حتى يعودوا الى حياتهم البدوية . وتعمل الحكومة الاسترالية على وضع قواعد تحميهم بها من الفناء كالقواعد التي وضعتها حكومة الولايات المتحدة لحماية الهنود الحمر . غير أن الاجياليين يعتقدون أنه ما من شيء يحميهم من الانقراض .

(صاحب المدرسة السامرية) لا ابن الصاموي كما ذكره الاستاذ أسعد .

وقد علمنا من ترجمة السامري ان اصله من سامرا وانه كانت له حظوة عند الوزير ابن العلقمي ببغداد وانه امتدح الخليفة المستعصم فخلع عليه خلعة سوداء سفية . ثم رحل بعد ذلك الى دمشق واستوطنها وأنشأ بها مدرسته التي مات ودفن بها .

القاهرة السمير محمد رجب

وقع تحريف في الصفحة ١٣٤ — س ١ من مقتطف يوليو الماضي في كلمة برج الصفر وصوابها مرج الصفر

عن هيني : شاعر الحب والجمال والحرية

قارئى بعد حين

لا تضحك(١)

« كلمات قديمة كأنها كتبت اليوم »

قارئي العزيز : ليفهم كل منّا صاحبه، مرّة وبلا ودّة إنني لم أبجّل في حياتي فعلاً . إن ما أبجّله هو الروح الانساني . ما الفعل إلاّ الوشاح الذي يتشح به الروح . وما التاريخ إلاّ الأسمال الخلقة التي خلعها الروح الانساني . غير ان الحب قد يتصل ، بعض الأحيان ، بالقبّعات والأردية القديمة . فأراني أحب عباءة مارنجو (٢)

« نحن الآن في ساحة موقعة مارنجو »

لشد ما اضطرب قلبي في صدري عندما فاه السائق بهذه الكلمات . كنت قد غادرت « ميلان » في الليلة السابقة، برفقة لتوانيّ رفيع الأدب ، كريم الخُلق ، تظاهر بأنه روسيّ . وفي صبيحة اليوم التالي شهدت الشمس تبزغ على ساحة الموقعة المشهورة .

هنا شرب الجنرال « بونابرت » جرعة مترعة من كأس الصيت والشهرة فأسكرته ، ومضى في سكرته حتى أصبح قنصلاً ، ثم عاهلاً ، ثم غازياً عالميًّا ، ولم يفق من سكرته هذه إلاّ من فوق صخور القديسة هيلانة . ولسنا بأحسن منه حالاً . فقد نسكر نحن أيضاً ونشاطره أحلامه، ثم نفيق . وفي تعاسة الصحوة نؤخذ بمختلف ضروب النظر والفكر اليقظ — وكأني أعجب هل أصبح المجد الحربي لهواً قديماً ، وان الحروب قد لبست معنى أنبل من معناها القديم ، فذهبت ومعها نابليون ، الذي قد يكون — آخر الغزاة ؟

يظهر كما لو أنّ لبانات روحيّة ، أكثر منها ماديّة ، قد علق بها الانسان في هذا العصر ، وكما لو أن التاريخ الانساني قد تحوّل فلم يصبح حديث اللصوص، بل حديث الفكر، وكما لو أن القوميـة ، ذلك الصّمام الذي حذق الأمراء ، ذوو الأطماع والشهوات ، كيف يستخدمونه قضاءً لأغراضهم ، القومية بما فيها من غرور وبغضٍ ، قد بليت وعلاها العَفَن

---

(١) From "Journey from Munich to Genoa, 18

(٢) مارنجو قرية على ثلاثة أميال جنوب شرق اليساندريا في ايطاليا ، واشتهرت بموقعة ١٤ من يونيه سنة ١٨٠٠ التي أتم بها نابليون مغزاة شمال ايطاليا ، وكان نابليون يرتدي عباءة رافقته في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة . ولما مات كانت بجواره ، فسجي بها .

نرى في كل يوم إن بعض حماقات القومية يختفي إثر بعض ، وان كل مقوماتها الخشنة قد مضت تنحل ، وتغيب في شمولية الحضارة الأوربيّة . أصبحنا ولا نرى في أوربا من أمم بل نرى أحزاباً ، نُكْبِر فيها أنها بالرغم من اختلاف اللون وتباين اللغة ، قد تعرف ، بل وقد تفهم ، بعضها بعضاً جدّ المعرفة . وكما إننا نعلم أن هنالك سياسة ماديّة تنتحيها الدول ، نعرف أن هنالك سياسة روحانية تؤيدها الأحزاب .

بالرغم من أن السياسة الدولية قد تقلب أتفه المشاحنات التي تقع بين أقل الأمم شأناً ، حرباً أوربية شاملة يشترك فيها الجميع بحماسة تضطرم بشدة أو بضعف ، بحسب ما يختص وراءها من مصالح ، فانه من المستحيل في هذا العصر أن تقع في طرف من أطراف العالم مشاحنة ، مهما تفهت وذلت ، لا تتجلى فيها تضمينات روحية واسعة النطاق ، تعبِّر عنها تلك السياسة الحزبية ، ومن غير ان تضطر أشد الأحزاب تنافراً وبعداً عن التآلف ، الى الاشتراك فيها تأييداً أو نفياً .

بمقتضى هذه السياسة الحزبية ، التي أدعوها سياسة الرّوح ، لأن لباناتها أقل ماديّة وعُدَدُها في التنابذ ليست مصبوبة من معدن مصهور ، وبمقتضى انها تنظم الامم صفين متقابلين ، كما تفعل الدول السياسية تماماً ، أدرك أن هنالك معسكرين متشاحنين ، آخذين في النماء والنشوء ، يتحاربان ، بالكلمات ، ويتقاذفان بالنظرات . إن نداءات الحرب بينهما تختلف يوماً بعد يوم ، كما يختلف الذين يمثلونهما آونةً بعد أخرى . وكذلك الفوضى ، فانها لا تنقصهما . فالغالب ان أعظم الخلافات قد تزيد ولا تنقص ، بفضل الزعماء الذين يحرّكون تلك السياسة الرّوحية (١) .

ولكن ..... بالرغم من أن العقول قد تخطىء ، فان القلوب قد تشعر بما تحتاج اليه ؟ وإن الزمن لكفيل بأداء واجبه الأعظم . فما هو ذلك الواجب الاسمى الذي يضطلع به زماننا .

إنه التحرير !

لا تحرير أهل ارلاندا أو اليونان أو يهود فرنكفورت أو سود جزائر الهند الغربية أو غير هؤلاء من الأجيال المستبد بهم ، بل تحرير العالم كله ، وبخاصة أوربا التي استطاعت أن تحظى بنفوذ الأغلبيات ، وهي اليوم تمزق أصفادها لتفلت من براثن الأرستوقراطية الحَمْر .

إن بعض المرتدين عن دين الحرية من الفلاسفة ، قد يحاولون إن يحيكوا من المنطق أقسى القيود وأعتى الأصفاد ، ليبرهنوا على ان الملايين من الناس قد ولدوا ليكونوا دواب للحمل ، يستخدمها بضعة آلاف من الارستوقراطيين .

---

(١) يشير الى نشوء الأحزاب الاجتماعية التي رمت الى القضاء على تفاضل الطبقات .

إنهم لم يقنعونا ، أو يظهروا ، كما قال فولتير ، إن الأولين قد ولدوا وعلى ظهورهم السروج ، وان الآخرين قد ولدوا وفي أكعابهم المهاميز .

لكل عصر واجبه . ذلك الواجب الذي تتحرك الدنيا نحوه لانجازه . قد يمكن أن تكون الفوارق والامتيازات التي خلّفها عصر الاقطاع في أوربا ضرورة فيما مضى من الزمن، وقد تقول انها كانت حالة محتومة اقتضتها ضرورات التقدم نحو الحضارة . ولكنها الآن تعرقل أوربا وتتركها تتعثر ، فتثير كل القلوب التي تقدس الحريّة .

إن الفرنسيين، وهم أكثر الشعوب اجتماعية، كانوا بالضرورة أشد تأثراً بهذه الفوارق ، لما لحظوا فيها من عداءٍ للمبدأ الاجتماعي . فسعوا الى تحقيق المساواة ، وعمدوا الى الاطاحة في غير عنفٍ ، ولكن بثبات وعزم ، برؤوس أولئك الذين أرادوا أن يؤيدوا الفوارق بين الطبقات بكل ثمن ، وكانت ثورتهم أول اشارة للانسانية كي تهب إلى حرب التحرير .

فلنمجِّد أهل فرنسا !

لقد عنوا كل عناية بأعظم حاجتين من حاجات الجمعية البشرية : الغذاء الطيب ، والمساواة المدنية . لقد خطوا أعظم الخطوات في أمرين : الطهي والحريّة .

وإذا قدّر لنا أن نجلس جميعاً مرحين متساوين في وليمة نضع فيها أساس التفاهم — وأي شيء أرضى للنفس من صحابة من الأنداد حول مائدة ممتعة ؟ إذن فلنشرب نخب فرنسا اولاً .

غير أني اتوقع انه سوف يمر بعض الزمن قبل ان تقام هذه الوليمة ، وقبل ان يتم تحرير الناس جميعاً . ولكنها لا بد آتية لا ريب فيها . فاذا أتت فسوف نجلس الى مائدة واحدة ونحن متساوون وفي سلام . سنتحد حينذاك . واذا اتحدنا شرعنا نحارب غير ذلك من شرور الدنيا ، وربما شرعنا في النهاية نحارب الموت نفسه ، ولو ان نظامه في المساواة لا يرمينا بمسبة أنكى من تلك التي يرمينا بها مذهب تفاضل الطبقات، الذي يعتنقه الارستقراطيون.

قارئي بعد حين لا تضحك !

ان كل عصر يظن ان معركته التي يخوض غمارها هي أثمن المعارك جميعاً . ان هذه للحقيقة التي تنطوي عليها عقيدة العصر. انها تعيش وتموت فيه . وكذلك نحن . سوف نعيش ونموت في هذا الدين ، دين الحرية . ولقد تكون الحرية أخلق بهذا الاسم من ذلك الخيال الفارغ الذي يضفى عليه هذا الاسم

ليظهر لنا ان معركتنا المقدسة التي نخوضها هي أثمن المعارك التي شهدتها الأرض . ذلك على الرغم من إن القياس التاريخي يوحي الينا بأن أحفادنا سوف ينظرون اليها ، نفس تلك النظرة الهازئة التي نلقيها على معارك أسلافنا الأولين ، الذين قاتلوا أشباه الذين نقاتلهم اليوم من السعالي والعمالقة والأغوال .

أهل الذمة

في العصر الفاطمي

من المبادىء التي اتبعها المعز لدين الله الفاطمي منذ فتحه مصر حرية العقيدة إذ جعلها حقًّا للمصريين جميعاً فكان لليهود دينهم وللنصارى دينهم ، وكان الناس في عهده وفي عهد من أتى بعده من الخلفاء الفاطميين ، متساوين تربطهم رابطة انسانية واحدة ، وتظلهم راية واحدة هي راية الوطن . ولا غرو فالدين الاسلامي ترك للذميين الحرية التامة في اتباع احكام دينهم وبذلك قضى على معظم الخلافات التي كثيراً ما فرّقت بين المسلمين وأهل الذمة

والخليفة الفاطمي انما يتبع في هذه الحرية سنة المسلمين منذ فتح عمرو بن العاص مصر ايام الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) ويطبق الشريعة الغراء التي تقرّر المساواة التامة بين المسلمين وذوي العهد في كل شيء دنيوي والتي تجعل الود موصولاً بين أتباع موسى وعيسى ومحمد . فقد قال تعالى « لكم دينكم ولي دين »(١). وقال ايضاً « لا اكراه في الدين »(٢). وقال تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »(٣) وغيرها من الآيات الكريمة ، التي تدل دلالة واضحة على تسامح الدين الاسلامي مع الذميين ، وان الله خلق الانسان حرًّا مختاراً ان شاء آمن وان شاء كفر « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٤) ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « من آذى يهوديًّا او نصرانيًّا كنت خصماً له يوم القيامة »(٥) ويقول « استوصوا بالقبط خيراً ، فان لهم ذمّة ورحماً »(٦)

---

(١) الآية ٦ من سورة الكافرين رقم ١٠٩ (٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة رقم ٢

(٣) الآية ٩٩ من سورة « يونس » رقم ١٠ (٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف رقم ١٨

(٥) السيوطي حسن المحاضرة ص ٦٧ ودائرة المعارف الاسلامية المجلد الثالث ص ١٠٧ نقلا عن البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ص ١٦٢

(٦) أما الذمة فلأن الرسول عليه السلام تسرى منهم مارية القبطية التي أهداها اليه المقوقس فولدت له ولده ابراهيم في ذي الحجة سنة ٨ هـ. أما أختها « سيرين » فقد وهبها النبي عليه الصلاة والسلام الى « حسان ابن ثابت » . مات ابراهيم وعمره ١٦ شهراً وقيل ١٨ شهراً وصلى عليه الرسول ودفنه بالبقيع . أما الرحم فلأن هاجر ام اسماعيل بن ابراهيم من القبط . ولقد اتبع الفاطميون سنة نبيهم فتزوج مثلا العزيز بالله بنصرانية وعين أخويها بطريركين ملكيين أحدهما باسكندرية والآخر ببيت المقدس . الكندي فضائل مصر المخطوط ورقة ٣ ويحيى بن سعيد الانطاكي التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٤٤ — ١٤٥ وابن الاثير أسد الغابة جـ ١ ص ٣٨ — ٣٩

ويقول عليه الصلاة والسلام « وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم » ويرد على الذين قالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول الله بقوله « يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرّغون للعبادة » (١)

ونرى أن هذا الحديثِ موضوع وضعه الأقباط ، وهو يبين بكل جرأة الدور الذي يقوم به الكتّاب النصارى في الدولة الاسلامية

ولقد أوجدت المعيشة المشتركة بين المسلمين وأهل الذّمة منذ البداية نوعاً من التسامح ، وآثر أصحاب الأديان المختلفة أن يعيشوا متقاربين متفاهمين ، ولكن المعز لدين الله نمّاها هو وغيره من الخلفاء الفاطميين ، فكان أهل الذمة في زمنه أحراراً في تقاليدهم وعاداتهم لا يضيق عليهم إلاّ اذا دعت المصلحة العامة لهذا التضييق . فمثلاً أبطل المعز لدين الله مهرجان ليلة الغطاس إذ شاهد بنفسه مايحصل فيه ليلاً من المفاسد من قصره الذي كان يشرف على النيل إذ تجاهر الناس فيها بشرب الخمر وأفرطوا في اللهو والفساد . كذلك منع المعز لدين الله القبط من صب الماء على الناس في الطرقات يوم النوْروز (أو النيرُوز) ، ومنع الناس من ايقاد النار في تلك الليلة لما يأتون من الافراطات . يؤيدنا في هذا الرأي ان هذا الخليفة كان يحتفل بمواسم النصارى فيضرب خمسمائة دينار ذهباً (عشرة آلاف خروبة)، ويفرقها على جميع أرباب الرسوم يوم خميس العهد الذي يسميه العامة « خميس العدس » والذي فيه يتهادى النصارى قبل الفصح بثلاثة أيام ، كما كان من رسوم الدولة ان تفرق المتارد التي بها السمك والزلابية والبوري في عيد الميلاد المسيحي على أرباب الدولة من اصحاب السيوف والأقلام ، كما كانت تفرق الدولة النارنج والليمون والقصب والسمك وغيرها برسوم مقررة لكل واحد من ارباب السيوف والأقلام في يوم الغطاس (١١ طوبة) (٢)

إنهم جميعاً في الانسانية اخوان وأعوان . لذلك رأى الخليفة الفاطمي ، كما رأى المسلمون من قبله ، ان العقيدة يجب أن تترك امرها لعلام الغيوب وحده ، لأن النبي عليه السلام يقول « اتقوا دعوة المظلوم وان كان كافراً فليس بينها وبين الله حجاب » ويقول ايضاً « من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته او انتقصه او أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » (٣)

ومن الأمور التي انزعج لها المسلمون أيام الدولة الفاطمية كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، حتى كان النصارى واليهود هم الذين يحكمون المسلمين

---

(١) السيوطي حسن المحاضرة ص ٤ و ٩

(٢) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٤٦ والمقريزي الخطط ج ٢ ص ٣٩١—٣٩٢ وابن اياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٦ و ٥٩

(٣) أبو يوسف الخراج ص ١٤٥

في بلاد الاسلام . نعم إن الشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشـار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة ، ولـكن هذه السياسة وان اختلفت ليناً وشـدة ورأفة وعنفاً على توالي الأيام ، فانهـا مكنت أهل الذّمة من الحصول على المناصب الدسمة في الدولة ، فكان منهم الوزراء وأرباب المناصب العالية وبذلك جمعوا ثروات طائلة واصبحوا ذوي سلطان ونفوذ . وتحدّثنا المصادر التاريخية عن كثير من أهل الذمة تولوا أرفع المناصب في الدولة الفاطمية وعوملوا برفق وعنـاية من خلفائهم فتمكنوا من مَرافق الدولة وعظم نفوذهم وسلطانهم فكثر لديهم المال . فمثلاً كان طبيب المعز لدين الله قبل ولايته للعهد « اسحق بن سليمان اليهودي » طبيب المنصور والد المعز ،ثم بعد موت والده اتخذ « موسى بن العازاو » طبيباً له (١) . كذلك استوزر المعّز من اهل الذمة « ابا الفرج يعقوب بن كلس » (٢) الذي كان يهوديـًا وأسلم فكان متفوقاً في المالية ماهراً في الادارة ، وضع نظم الادارة الفاطمية بمصر وانتعشت البلاد في عهده وكان الرخاء وافراً في وادي النيل . ولمـا مرض ابن كلس مرض الموت ركب العزيز بالله اليـه وعاده وقال له « وددْت انك تباع فأبتاعك بملـكي وولدي » ولما توفى سنة ٣٨٠ هـ حضر الخليفة جنازته وصلى عليـه وألحده في قبره وكان دفنه في قبة بدار الخليفة كان قد بناها لنفسه (٣) ولا ادل على ثروته من انها احتوت من الجواهر الثمينة

---

(١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٤٥ والقلقشندي صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٦ والمقريزي اتعاظ الحنفا ص ٥٧

(٢) Lane Poole a History of Eygpt in the Middle Ages p. 120 —Margolouth Cairo. p. 41-42—Mann, The Jews. p. 17

كان أبو الفرج يعقوب بن كلس يوسف الملقب بابن كلس (٣١٨ — ٣٨٠ هـ و ٩٣٠ — ٩٩١ م) يهودياً من أهل بغداد فيه فطنة وذكاء خرج الى الشام بالرملة في شبابه واشتغل بها في التجارة وأثقلته ديون عجز عن ادائها فهرب منها بعد مدة الى مصر فرأى منه كافور الاخشيدي فطنة سياسية ومعرفة بتصريف الشؤون فقال « لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً » فأسلم سنة ٣٥٠ وقيل سنة ٣٥٦ هـ على يد كافور ولما مات كافور قبض عليه الوزير « جعفر بن الفرات » وزجه في السجن وصادر أمواله لانه كان يحسده ويعاديه فما زال يسعى ويبذل الاموال حتى أفرج عنه وفر من مصر سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) الى المغرب. ودعا المعز الى فتح مصر بعد أن وصف له غناها واضطراب أحوالها وضعفها. ولما دخل المعز مصر ليتملكها دخل معه وترقى ابن كلس حتى وصل عنده الى منصب الوساطة وأصبح حجة في العلوم الاسلامية بفضل ذكائه وانكبابه على العمل. ولقد ألف ابن كلس كتاباً في الفقه على مذهب الفاطميين وهو المعروف بالرسالة الوزيرية نسبة الى مؤلفها الوزير يجلس بنفسه في الناس عامتهم وخاصتهم لقراءتها وكان أول من فكر في اتخاذ الجامع الازهر معهداً للدراسة المنتظمة . ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٤٠ و ج ٣ ص ٣٩١ — ٣٩٦ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٢٠ و ٢١ و ٤٩ وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والعيني عقد الجمان القسم الثالث ج ١٩ ورقة ٤١٩ و ٤٢٠ وابو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥١ و ج ٤ ص ١٥٨ وابن طاهر أخبار الدول المنقطعة ورقة ٤٧ — ٤٨ و ٥١ — ٥٢.

(٣) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٤٩ وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦

ما قدر قيمته بمائة الف دينار ، وقيل ٤٠٠ الف دينار (١) . وكان اقطاعه من العزيز بالله الف دينار وله اربعة آلاف غلام من العبيد والمماليك (٢) ولما مات ابن كلس رد العزيز بالله النظر في الأموال الى عيسى بن نسطورس المسيحي (٣) ثم رفعه الى منصب الوساطة .

وكان مَنَشَّا بن ابراهيم القزّار اليهودي والياً على الشام ايام الخليفة العزيز بالله ، وكان طبيب هذا الخليفة وطبيب والده الحاكم بأمر الله « ابو الفتح سهل بن مُقَشَّر النصراني المصري . ولما مرض الحاكم وداواه ابن مقشّر اعطاه عشرة آلاف دينار (٤)

ورقي « فهد بن ابراهيم » النصراني الى منصب الوزارة للحاكم بأمر الله بعد ان كان كاتباً ولقب بالرئيس وخلع عليه الخلع وحُمل على بغلة وقيد بين يديه بغلة اخرى وحمل بين يديه عشرون ثوباً .

كذلك تقلد الوزارة « منصور بن عبدون » النصراني سنة ٤٠٠ هـ كما تقلدها زُرعه ابن نسطورس المتوفى سنة ٤٠٣ هـ وهو اخو عيسى بن نسطورس السالف الذكر ايام الخليفة الحاكم بأمر الله .

وفي ايام الخليفة المستنصر تولى الوزارة «ابو سعد منصور بن ابي اليمن سورس بن مكرواه بن زنبور النصراني الذي كان نصرانيًّا وأسلم ، كذلك تولى ابو سعد التستري وكان يهوديًّا فأسلم نظارة أم الخليفة المستنصر الخاصة .

وكان ابو نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب وزيراً للخليفة الآمر بأحكام الله وقد امر هذا الخليفة ان يعمل لأبي نجاح بتنيس ودمياط ملابس مخصوصة له من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب ليلبسها ومن فوقها العفافير الديباج وسمح له ان يركب الحمير بسروج محلاة بالذهب والفضة وكان يشم ريحه من مسافة بعيدة لتطيبه بالمسك يوميًّا (٥) ؟ كما تقلد الأحزم بن ابي زكريا أمر الدواوين أيام الخليفة الحافظ كذلك عهد هذا الخليفة الى بهرام الأرمني النصراني سنة ٥٢٩ هـ بالوزارة وعهد الى اخيه المعروف بالباساك بولاية قوص . ولما مات بهرام سنة ٥٣٥ هـ حزن الحافظ لدين الله عليه حزناً شديداً وأخرجه عند صلاة الظهر في تابوت

---

(١) ابن منجب الصيرفي الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣

(٢) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٣ ص ٣٩٥ والعيني عقد الجمان القسم الثالث ج ١٩ ورقة ٤١٩ — ٤٢٠ و Lane Poole, A, History of Egypt. p. 119

(٣) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والسيوطي ج ٢ ص ١١٦

(٤) ابن العبري مختصر تاريخ الدولة (طبعة اليسوعيين) ص ٣١٦ والاستاذ عنان الحاكم ص ٣٧ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٥٥ والدكتور حسن ابرهيم حسن الفاطميون في مصر ص ٢٠٥ نقلا عن يحيى بن سعيد ص ١٨٥ — ١٨٦

(٥) ابن طاهر أخبار الدول المنقطعة المخطوط ورقة ٥١ — ٥٢ و ٧٥ وابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٥٦ و ٧١ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٨٧ والعيني عقد الجمان المخطوط المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٢٠

عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر منهم احد من الاعيان . وخرج الخليفة راكباً بغلة خلفه والقسس يقرأون الانجيل ولقد بكى الخليفة بكاءً شديداً عليه عندما وضع في قبره (١) ولا شك ان المسلمين كانوا يكرهون ان يكون احد من اهل الذمة في منصب رفيع كالوزارة ، لا سيما وان من رسوم هذا المنصب ان يصعد الوزير مع الامام المنبر في الأعياد ليزرّر عليه المَزَرّة (الستارة) الحاجبة له عن الرعية ، وغير ذلك من الأمور التي تتصل بعوائد المسلمين الدينية مما اضطر الخليفة ان يضع تقليداً جديداً ، يتعهد الى القاضي في القيام بمثل هذه المهامّ عندما يكون الوزير من اهل الذمة (٢) غير ان اهل الذمة عندما ولاهم الخلفاء الفاطميون اكبر المناصب في الدولة أظهروا محاباة ظاهرة لبني ملتهم فعينوهم في المناصب الحكومية ومنعوا المسلمين اصحاب الاغلبية العظمى في البلاد من ان يستخدموا ، فكانوا بذلك العاملين على بث شعور الكراهية والبغض بينهم وبين المسلمين فتذمر المسلمون وقاموا بالاحتجاج عند الخليفة بين الفينة والفينة فكان ذلك سبباً في اعتزالهم واقصائهم عن مناصب النفوذ ، كذلك سخط المسلمون على أهل الذمة في العصر الفاطمي لأنهم تمكنوا من جمع الثروات ووقفوا قسماً كبيراً من أراضي مصر على الكنائس والاديرة ، ولأنهم تسلطوا على عقول الخلفاء .

فاذا قسا خليفة فاطمي على أحد من أهل الذمة فانما كان يقسو في اعتقادنا تحت ضغط الرأي العام الاسلامي ، الذي كثيراً ما آلمه محاباة نفر من أهل الذمة وايثاره بكل النفوذ والسلطان وحرمان المسلمين من حقهم الطبيعي في تقلد الوظائف العامة ومن هنا نشأ القبض على بعض أهل الذمة وحبسهم وعزلهم ومصادرة أموالهم وقتلهم أحياناً .

تحدّثنا المصادر التاريخية انه وقفت امرأة في طريق الخليفة العزيز بالله (وقيل صورة مصنوعة على هيئة امرأة) بقصة (شكاية) فيها « يا مولاي بالذي أعزّ النصارى بعيسى ابن نسطورس واليهود بمنشا بن ابراهيم القزاز وأذل المسلمين بك ، ألا نظرت في أمري » (٣) لأن عيسى مال الى النصارى وقلدهم الاعمال والدواوين ومنع المسلمين منها وسلك مسلكه

---

(١) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٨٤ والداودار زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة المخطوط ورقة ١٧٥ — ١٧٦ والعيني عقد الجمان المخطوط ورقة ٤١٩ — ٤٢١ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٨ وانظر Lane-Poole, A. History of Eygtitpn he Middle Ages p.121

(٢) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٧٩ (٣) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٣ وأبو الفدا المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٣١ وخيرة الاعلام المخطوط ورقة ١١١ — ١١٢ والعيني عقد الجمان ورقة ٤٢١ — ٤٢٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ — ١١٦ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨ — ٤٩

منشا بالشام فرفع اليهود واستخدمهم وبذلك استولى اليهود والنصارى على الدولة واعتزوا بهما وآذوا المسلمين .

وسواء أصحت هذه الرواية ام كانت مختلقة لأنها رويت لأكثر من خليفة فنسبت الى العزيز بالله احياناً (١) والى الحاكم بأمر الله احياناً اخرى (٢) فهي لدينا ذات مغزى هي ان نفوذ اهل الذمة طغى واستعانتهم ببني جنسهم ازدادت حتى تكوّن في مصر رأي عام يقول بالحد من سلطانهم وعدم اصطناعهم لبني جنسهم

فمثلاً عيسى بن نسطورس حابى أهل ملته وعينهم في الوظائف الهامة بعد ان عزل الكتبة وجباة الضرائب من المسلمين . ولما عوتب في ذلك قال « إن شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ثم صارت اليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة فمتى كان منكم الينا احسان حتى تطالبونا بمثله ان مانعناكم قاتلتمونا ، وان سالمناكم أهنتمونا إذا وجدنا لكم فرصة ، فماذا تتوقعون أن نصنع بكم » (٣) ؟

لذلك لما عاد ابن نسطورس الى منصبه اشترط عليه استخدام المسلمين (٤) أما منشا ابن ابراهيم القزّار فقد اتبع نفس سياسة ابن نسطورس ببلاد الشام بالنسبة لأهل ملته اليهود فملأ الوظائف بهم وخفّض الضرائب المفروضة عليهم (٥) أما أبو سعد التّستّري اليهودي فقد تعسف بالمسلمين وحابى أهل ملته حتى كان المسلمون يحلفون بهذه العبارة « وحق النعمة على بني اسرائيل » وهذا ما حدا بالشاعر أن يقول في هذا اليهودي :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم   ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر اني نصحت لكم   تهوّدوا قد تهوّد الفلك (٦)

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن ان هذا الشاعر يحتمل أن يكون الرضي بن البواب (٧) وهو شاعر معاصر .

وما حدا بالشاعر الحسن بن بشر الدمشقي أن يقول :

تنصرْ فالتنصر دين حقْ   عليه زماننا هذا يدلُّ

---

(١) ابن طاهر أخبار الدول المتقطعة المخطوط ورقة ٥٢ و ٥٣ (٢) الذهبي تاريخ الاسلام المخطوط ج٣ ورقة ٢٨٧ (٣) النويري نهاية الارب ج٢٦ ورقة ٥٠ (٤) النويري نهاية الارب ج٢٦ ورقة ٤٩

(٥) Mann, The jews in Egypt & Palestine under the Fatimid Caliphs pp. 19 — 20

(٦) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ١ و ٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ (٧) الدكتور حسن ابراهيم حسن الفاطميون في مصر ص ٢١١

وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا   وعطّل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أبٌ وهذا   عزيز ابن روح القدس فضل

أما ابو نجاح بن قنا النصراني الراهب فانه لم يبق أحد من المسلمين أيام الخليفة الآمر إلاّ ناله منه مكروه من ضرب أو نهب أموال (١) .

ولما قرّب الخليفة الحافظ « الاحزم بن أبي زكريا » النصراني اليه وأولاه أمر الدواوين أعاد لكتاب النصارى تجبرهم وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسوّمة بالسروج المحلاة باللجم الثقيلة وضايقوا المسلمين في أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات وفي ذلك يقول ابن الخلال :

اذا حكم النصارى في الفروج   وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرًّا   وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا   زمانك ان عزمت على الخروج (٢)

وعند ما تولى بهرام الأرمني الوزارة سنة ٥٢٩ هـ أيام الخليفة الحافظ وكان بهرام نصرانيًّا فولى الأرمن ومكنهم من إهانة المسلمين ، فلما اشتد ضرره بالمسلمين ، جمعهم رضوان بن ولخش لمحاربته (٣)

كذلك أمر الخليفة الحافظ بكف أيدي النصارى عند ما انتقم الكاتب النصراني من الموفق بن الخلال « ضامن المعدية » وجعله يدفع ظلمًا خراج أرض الاجام مع انه ليس له أرض زراعية بالناحية (٤) ويقول أوليري O'Leary (٥) ان الفاطميين بالغوا في استخدام أهل الذمة في المناصب المدنية أكثر مما جرت به العادة من قبل .

ولا غرو فقد اشتهر أهل الذمة ولا سيما الأقباط بدرايتهم في الأعمال الكتابية والحسابية فكانوا يستخدمون في فروع الادارات المختلفة واحتكروا الوظائف المالية في الدواوين الفاطمية لمهارتهم في الحساب حتى قال ابن الحاج (٦)

لعن النصارى واليهود فانهم   بلغوا بمكرهمو بنا الآمال
خرجوا اطباء وحسابًا لكي   يتقسموا الارواح والأموال

ونرى أن الحركات التي يقصد بها مقاومة أهل الذمة في العصر الفاطمي كانت موجهة

---

(١) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٨٧ (٢) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٢٥٠ (٣) العيني عقد الجمان المجلد الاول ج ١٨ ورقه ٩٢ وعلي مبارك باشا الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٧ (٤) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٢٤٩

(٥) O'Leary de Lacy, a short History of the Fatimid Khalifate p.114

(٦) ابن الحاج المدخل ج ٤ ص ١١٥

إلى محاربة تسلطتهم على المسلمين ، إذ إن سيطرة الذمي على المسلم أمر غير مألوف للمسلمين وكان يحدث من ذلك القليل من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة نتيجة تجبر المتصرفين منهم وايذائهم للمسلمين. وهذا ما دعى الخليفة الفاطمي أيضاً إن يمنعهم من الاحتفال ببعض أعيادهم وبتنفيذ الأوامر التي تقضي بشد الزُّنّار ولبس الغيار وان لا يظهر يهودي بغير غيار (١) وكما لبس اليهود البراطيل الطويلة لبس النصارى البرانس فتعقبهم الجمهور وآذاهم وأغفل العهد أو الميثاق الذي أعطي لهم من قديم الزمن فاتخذ الغوغاء سوء معاملتهم للمسلمين ذريعة لنهبهم وسلبهم ولقد أمر الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣ هـ بهدم كنائسهم بالديار المصرية (٢) فهدمت عدة كنائس وأديرة .

كما تحرَّش المسلمون في الطرقات بكل من يُرى من أهل الذمة بغير الزي الذي رسم له أن يظهر به . هذا الشعور العدائي . في نفوس المسلمين من ايثار أهل الذمة عليهم كان يزيد ويعظم كلما ولي رجل من أهل الذمة منصباً له جاه وسلطان . ومع ذلك فقد تمتع اليهود والنصارى (٣) بصفة عامة بحريتهم الدينية في أغلب العصر الفاطمي وشجع الخلفاء اقامة الكنائس والبيع والأديار (٤)

لقد لقي أهل الذمة من الخلفاء الفاطميين كل مودة وعطف ورعاية في الحياة وبعد الموت ، وكما أستعين بأهل الذمة في الدواوين كذلك أستعين بهم في الأعمال الأخرى فمثلا كان منهم أطباء الخليفة وكان لهم منزلة سامية عنده

---

(١) المقريزي اتعاظ الحنفا ص ٨٧ ففي سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بأمر الله مثلا أن تعمل في أعناق النصارى الصلبان بحيث تكون ظاهرة على صدورهم وأفرد الحاكم بأمر الله لليهود حارة زويلة ليسكنوها ولا يخالطوا المسلمين

وفي سنة ٤٨٤ هـ لما استطال أهل الذمة على المسلمين ألزمهم الخليفة المستنصر بلبس الغيار (علامة أهل الذمة) والزنانير وتعليق الدرهم الرصاص في أعناقهم مكتوب عليها ذمي وفي أعناق نسائهم في الحمامات ليعرفن بها وأن يلبسن الخفاف فرداً أسود وفرداً أحمر وخلخالا في أرجلهن فذلوا وقمعوا . الذهبي: تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٥٣ و ٢٧٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ — ١٧٩ و ج ٥ ص ١٣١ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٥١ — ٥٣ وذخيرة الاعلام المخطوط ورقة ١٦

Mann, The jews in Egypt p. 33 & Betler, the Arab conquest of Egypt p. 448

(٢) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٥٧ (٣) زاد بلاط الخليفة العزيز بالله في إكرام النصارى وكان للخليفة أصهار منهم Lane Poole, the Story of Cairo p. 121

وانظر Lane Poole, A history of Egypt in the Middle Ages p. 169

(٤) الاستاذ عنان الحاكم بأمر الله نقلا عن أبي صالح الارمني ص ١٣٩ ا و ٤١ ب

وانظر Arnold, the Preaching of Islam chapter 3 & Lane Poole, the Story of Cairo p, 121

نقل الدم وشفاء الامراض

وضح لرجال الطب في العهد الاخير ان نقل الدم يكون علاجاً جديداً يشفي الامراض النوعية ، أي التي يسببها جراثيم معروفة او فيروسات (مترشحات) غير مرئية بالمجاهر . فانه من المعروف ان البلاسما ، وهي الجزء المائع من الدم ، قد انقذت من الموت آلافاً من الجنود بأن حصنتهم من الصدمات المرضية المميتة . كذلك نعرف ان هذه البلاسما تحتوي على قدر من البروتينات المعقدة التركيب أحدها المعروف باسم (غما جلوبولين) Gamma globulin الذي يحتوي على الاجسام المضادة Antibsdeis التي تقي من الامراض او تقاومها وقد تشفيها . وتوجد هذه الاجسام المضادة في الجلوبولين بنسبة ٢٥ ضعفاً أزيد من كثافة الدم وحقن الجلوبولين المحتوي على هذه الاجسام في افراد معرضين للاصابة بمرض اوهم مرضى به بالفعل ، اما ان يمنع الاصابة ، واما ان يحول سير المرض .

وتستعمل الآن مادة (غما جلوبولين) في اتقاء مرض الحصبة ، وهو كذلك ذو أثر كبير في حالات اليرقان المعدي وهو مرض كثير الانتشار بين الجنود ، وربما كان ذا أثر في مقاومة أمراض أخرى فيروسية لم يعرف بعد شيء من طبائعها .

ولا يخامرنا شك في أنه ان صدر مرسوم بشأن أهل الذمة فإنما كان صدوره لاعادة المستبد منهم الى حظيرة القانون ولم يكن ابداً نتيجة تعصب ديني فأفرج مثلاً الخليفة العزيز بالله عن ابن نسطورس بتأثير ابنته « سيدة الملك » وزوجته النصرانية ، بعد إن اشترط عليه ألا يحابي أهل ملته وان يستخدم المسلمين في الدواوين فلما لم يرتدع أهل الذمة شنق العزيز بالله منشا على أبواب دمشق ، كما ضرب الحاكم بأمر الله عنق ابن نسطورس لما استجار الناس به من سوء فعله (١)

كذلك لما نال الناس من أبي نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب من الجور والظلم واستباحه الأموال الشيء الكثير قتل ، ولما أساء بهرام النصراني السيرة سجنه الحافظ ثم أطلقه فترهب (٢)

وعلى ذلك فلم يفرق الخليفة الفاطمي في دولته بين المسلم والنصراني واليهودي بل كان عهده عهد سلام ووئام بين رعاياه جميعاً مسلمين وغير مسلمين وبذلك تمتع أهل الذمة براحة البال من حيث عقائدهم الدينية .

عطية مصطفى مشرفة

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٣ وابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٥٤ و ٨١ والعينى عقد الجمان المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٢٠ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨ — ٤٩

(٢) العيني المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٩١ والمجلد الثالث ج ١٩ ورقة ٤٢٢ و ٤٦٧ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ — ١١٦.

القلب وأمراضه (١)

١ — كيف نتقي أمراض القلب

للوقاية من أمراض القلب لا بدَّ من ملاحظة النقاط التالية :

١ — ﴿ الطفولية الأولى ﴾ : العناية بصحة القلب يجب أن تبدأ منذ الأيام الأولى من الحياة وذلك بازالة جميع الأسبـاب التي تنشأ من اضطرابات الجهـاز الهضمي أو اضطرابات الجهاز العصبي . فأنيميا الأطفال مثلاً التي تتسبب من رداءة التغذية العامة نتيجـة حدوث التهاب معوي ، لها بلا ريب أسوأ التأثير على تغذية القلب ونموّه وتبدو نتائجها السيئة هذه حتى في السنين الأولى من حياة الطفل . أما إذا حرصنا بالعكس على حُسن تغذية هذا الطفل وكافحنا أسباب الاختلالات الهضمية التي تنتابه فنجعلهُ في الوقت نفسه في مأمن من الاصابة بأمراض القلب التي ستعتريه فيما إذا استمرت عندهُ تلك الاضطرابات .

ولا ينبغي أن يبرح عن الذهن أيضاً ما لمراعاة الشروط الصحيـة إبان إنتشار الامراض المعدية التي تصيب الأطفال خاصة وضرورة التقيد بها — وذلك بعزل المصابين منهم ، وتطهير الأماكن واستعمال طرق التعقيم المعروفة . فمكافحة القرمزية أو الخنّـاق مثلاً تقي بلا شك عدداً عظيماً من الأطفال من الاصابة بمرض القلب إن لم نقل من الموت أحيـاناً ، والخناق نفسه تعقبه حالة من ضعف القلب تدوم مدة طويلة من الزمن ، وقد يصاب هذا العضو نفسه بالشلل . ومع ذلك فشفاء المصاب ممكن غالباً بفضل العناية اللازمة والعلاج والتدابير الفعالة في مكافحة الأمراض المعدية .

٢ — ﴿ الرثية المفصلية ﴾ : هذا الداء الوبيل الفتّـاك يُـعدّ من أقتل العلل المـكروبية

---

(١) تتمة البحث المنشور في مقتطف يونيو ١٩٤٥

فهو يسبب كثيراً من أمراض القلب وعلى الخصوص التهاب الصمامات ، ومما يؤسف له إننا لم نتقدم حتى اليوم التقدم الكافي في مكافحته واستئصال شأفته . فألوف من المصابين يقضون نحبهم سنويًّا نتيجة زحفه القاتل وغاراته المميتة . وألوف غيرهم يبقون تحت رحمته متعلقين بخيوط واهية من خيوط الحياة بعد أن أتلف صمامات قلوبهم تلفاً بليغاً وترك فيها ندوباً مختلفة . ولا بد على كل حال من الاستمرار في مضاعفة الجهود لدرء أخطاره والقضاء عليه قضاءً مبرماً بفضل طرق العلاج الحديثة ولا سيما باستعمال البنسلين والهيبارين اللذان ثبتت الآن على ما يظهر فوائدهما العلمية .

٣ — ﴿ عمل القلب ﴾ : ومن أهم الأمور لسلامة القلب وانتظام عمله وبقائه بحالة صحية جيدة هو حفظ الموازنة بين العمل والراحة . وعدم ارهاقه بالعمل المضني فوق طاقته . فالأشخاص الذين يضطرون بحكم مهنتهم أن يبقوا مدة طويلة وقوفاً أو جالسين ، فضلاً عن أنهم يكونوا معرَّضين للاصابة بالدوالي أو البواسير بسبب اضطرابات الدورة الدموية في الأطراف السفلى أو البطن أو الشرج ، يغدو قلبهم في أغلب الأحيان عاجزاً عن القيام بأي مجهود عضلي يزيد عن الحد اللازم . فاذا ما أراد ذوو الحياة الجلوسية مثلاً المشي بسرعة أو الذهاب إلى إحدى النزهات الخلوية الطويلة ، أو تسلق الجبال الخ فليس في النادر أن يصابوا بعوارض أو اضطرابات مزعجة من ناحية القلب كالخفقان وضيق الصدر وعسر التنفس نتيجة ضعف القلب وقلة الرياضة البدنية أو عدمها . ومتى كان ذلك أصبح متعذراً على القلب نفسه القيام بالعمل المطلوب منه لاتمام الدورة الدموية خلال المجهود العضلي . ولا مراء في أن الأشخاص الذين يمارسون الرياضة البدنية بانتظام وبدون مشقة أو اجهاد ، ولا سيما في الهواء الطلق ، تكون قلوبهم أشد احتمالاً وأكثر مقاومة من قلوب الأشخاص القعودين أو ذوي الحياة الجلوسية . وبهذا الصدد نقول ان أفضل أنواع الرياضة هو ما ينبه القلب والرئتين كالركض والمشي بسرعة والمطاردة والوثب وركوب الخيل والانزلاق على الجليد ، فهي تحرك العضلات (عضلات الزراعين والفخذين والظهر) وتلائم الحالة الصحية أكثر من ضروب الحركات الاخرى لأن جميع أعضاء البنية تتحرك بهِ ولاسيما أعضاء التجويف الصدري . وهذه كلها ليست لمجرد التسلية واللهو وقتل الوقت بل هي ضرورية لصحة الجسم وحسن سريان الدم وتقوية العضلات وانتظام الهضم وتهدئة الأعصاب وبقية الأعضاء للقيام بعملها خير قيام . ولكي تأتي هذه فعلاً بالفائدة المنشودة يجب أن تمارس في الحقول والأرياف ان أمكن ذلك وليس في المدن الكبرى . وكم من الأشخاص يقضون العام بكامله دون أن تتاح لهم فرصة لتمرين عضلاتهم بالأعمال اليدوية المفيدة المسلية مثل حرث الارض أو زرعها ، أو

أعمال النجارة اليدوية الخفيفة ، أو رفع الأثقال الخ . وبديهي انه لا يمكنا أن نقابل هذه الأعمال اليدوية بالتي يقوم بها العمال عادةً في المعامل والمصانع بقرب الآلات في أماكن محصورة قليلة الهواء . وقد تبين بالاستقراء ان عمل اليدين مما لا بدّ منهُ لتقوية الرئتين وان الذين يعيشون عيشة القعود تكون عضلهم ضعيفة وعظامهم موثقة التركيب وخصوصاً عظام فقرات الظهر والالواح والضلوع فينحني الظهر ويهبط الكتفان وبسبب ذلك تضعف جميع الوظائف الحيوية في الجسم ، ويزداد هذا الضعف حين يتناول الجهاز العصبي . ويا حبذا لو تأسست في المدن الكبرى شركات أو نوادي خاصة بالتمارين العضلية المنظمة في الهواء الطلق التي تعود على الانسان بالفوائد الصحية العميمة ، ولاسيما للقلب ، فيغدو هذا أكثر قوة ومناعة . ومهما تكن مشاغل الانسان كثيرة في المدن ففي استطاعته الرحيل عنها مدة من الصيف على الأقل للتمتع بالهواء النقي وممارسة الرياضات المنوه عنها . أما اذا تعذر ذلك فيجب أن تخصص ساعة كل يوم ينصرف فيها الانسان الى الرياضة ليبقى محتفظاً بصحته ونشاطه .

أما من حيث ركوب الدراجات وصعود الجبال والسباحة والتجذيف والفروسية فلا تقل أيضاً فوائدها الصحية للجسم وللقلب أيضاً ما دامت تمارس باعتدال وضمن حدود معقولة ، وبعكس ذلك فانها تأتي بأسوأ النتائج على هذا العضو . فكثيرون من الشبان في عصرنا هذا مصابون بضعف في قلوبهم وقليلو المقاومة البدنية ، نراهم يجازفون ببعض المسابقات الشاقة مثل سباق الدراجات وتسلق الجبال ورفع الأثقال وغير ذلك دون أن يأبهوا لمبلغ الضرر الذي ينتابهم من ناحية القلب . ولذلك يجدر بهؤلاء الشبان عند قيامهم بمثل هذه التمارين العنيفة أن يتنبهوا غاية التنبه الى حالة قلبهم وعدم الاستمرار على متابعة هذه الرياضات عند الشعور بضيق الصدر أو الخفقان أو عسر التنفس الدالة كلها على عجز القلب ومجهوداته .

٤ — ❁ انتخاب المهنة ❁ لامندوحة عن درس حالة الطفل أو الشاب العصبية لمعرفة ما اذا كان يوجد عنده استعداد لبعض الحالات العصبية بغية انتقاء المهنة التي تلائم حالته الصحية حرصاً على صحة قلبه . فليس أضر من اعطاء شاب منهوك القوى محطم الأعصاب او مصاب بفقر الدم مثلاً مهنة لاقدرة لجسمه او لقلبه على احتمالها او القيام بأعبائها . ومن الضروري ان يأخذ هؤلاء المتعبين المنهوكين القسط اللازم والكافي من النوم والراحة ليلاً ، وان تنظم طريقة خاصة معقولة لمعيشتهم من جهة الأكل والشرب والنوم والراحة والعمل لئلاّ يسيروا من سيء الى أسوأ .

٢ — علاج المصابين بأمراض القلب

هل يمكن شفاء هذه الامراض وإلى أي حد يا ترى ؟ الجواب نعم يمكن ذلك الى حدّ ما وذلك بمساعدة المريض على التخلص كليًّا او جزئيًّا من العوارض والاسباب التي تنتابه ، وجعل قلبه أحسن حالاً من ذي قبل . فالمصاب بالقلاب (مرض القلب) كغيره من المصابين بالامراض الاخرى ، يتوقف شفاؤه في غالب الاحيان على كيفية العلاج وعلى العوامل والظروف التي تحيط به ، والبيئة التي يعيش فيها ، وعما اذا كان يعطي لقلبه القسط اللازم من الراحة او بالعكس . فلا بد والحالة هذه من تنظيم معيشته حسبما تتطلبه حالته الصحية الراهنة ، وبعبارة أخرى «يجب ان يكون هو طبيب نفسه» . ففي كثير من الاحايين قد أدّت طرق العلاج وحسن المداواة الى نتائج باهرة في ظروف كان أمل الشفاء أو التحسن ميؤوساً منهما . والغرض الاساسي الذي يجب أن نرمي اليه هو العمل على تقوية القلب ما أمكن بالوسائل اللازمة نسبةً الى حالة المصاب وإلى طراز معيشته وبذلك يمكنه ان يسترجع شيئاً فشيئاً قوته ونشاطه والقيام بعمله على أحسن حال ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى يجب ان نقول هنا ان كثيراً من أمراض القلب يكون مزمناً ، وأخرى يكون سيرها سريعاً كما هي الحالة مثلاً في التهاب الشغاف (باطن القلب) او في حالة التهاب التامور (غشاء القلب الخارجي) كما اننا نكون في حالات اخرى ازاء اضطرابات قد مضى على وجودها زمن طويل وتبقى ملازمة المريض الى النهاية . ولا بد كذلك من القول أن معظم التغيرات التي تطرأ على وظائف القلب ليست في الواقع الا نتيجة حدوث التهاب في الصمامات وفي جدران الشرايين والاوردة التي أخذت بطبيعتها شكلاً نهائيًّا بعد ان تركت ندوباً فيها .

ولنلق الآن نظرة عاجلة على بعض الاضطرابات القلبية وعما يجب اتخاذه من التدابير والوسائط الصحية للاسترشاد والعمل بها .

﴿ الخفقان ﴾ هو عبارة عن نبضات قلب سريعة متواترة وأشد قوة مما في الحالة الطبيعية وهو يأتي على هيئة نوب تدوم من بضع دقائق الى عدة ساعات ، والمريض ليس فقط يشعر بها بل انه يتألم ايضاً منها . ويصاحب هذه الحالة ضيق في التنفس وعرق وبرودة الاطراف وأحياناً الغثيان أي الميل الى القيء او الاغماء . اسبابه عديدة أخصها التأثرات القوية العصبية والخوف والانفعالات النفسانية والافراط في الاشغال العقلية ، او السهر الطويل ، او الاكثار من شرب الشاي والقهوة والتدخين والمشروبات الروحية ، والهموم والمشاغل الفكرية . وقد يحدث الخفقان ايضاً من سوء الهضم والارياح البطنية وفقر الدم والهستريا

والنوراستنيـا وقطع الحيض ومدة الحمل . وهو يصاحب بعض الأمراض القلبية مثل التهاب التامور ، والتهاب الشغاف والصمامات مع التهـاب عضلة القلب نفسه ، ولا يدل على علة في هذا العضو الاّ إذا رافقته أعراض أخرى لا يستطيع أن يميزها إلاّ الطبيب الحاذق .

﴿ الاسعافات الطبية الوقتية ﴾ : اجتناب الاسباب المار ذكرها ما أمكن . وفي مدة النوبة يُترك المريض براحة تامة في غرفة مظلمة نوعاً وبعيدة عن الجلبة والضوضاء والحركات المزعجة ، ويكون نومهُ على ظهره أو على جانبه الأيمن بحيث يكون أعلى جسمه مرتفعاً قليلاً عن أسفله . ثم يحلّ ما هو ضيق في اللباس حول العنق والصدر ، ويُسقى قليلاً من ماء الزهر أو ماء الورد المضاف اليه قليلاً من الإيثر ، وتدلك أطرافه بالكحول أو الكولونيا . وإن كان مصاباً بالامساك يُعطى مسهلاً من سلفات الصودا أو تُعمل له حقنة شرجية . ثم توضع له على منطقة القلب في المكان الذي يشعر فيه بالخفقان المكمدات الباردة بواسطة منشفة او قطعة قماش مطوية بشكل منديل الجيب ومبتلة بالماء البارد . ويُستحسن اضافة مقدار قليل من الخل أو العرق أو الكولونيا إلى هذا الماء لزيادة مفعوله ، ويكرر عمل هذه المكمدات مرات كثيرة في اليوم إذا لزم الأمر . واذا تكرر حدوث النوب يوضع للمريض على منطقة القلب كيس مطاطي مملوء بالثلج او بالماء البارد ويترك نحو نصف ساعة ثم يُرفع . ويمكن تكرار استعماله إذا اقتضت الضرورة لذلك .

اما الخفقان الذي هو من أصل عصبي فيمكن مكافحته ايضاً وذلك باستعمال الوضعيات او اللفائف الرطبة حول الجذع ، او ايضاً استعمال الحمامات الدافئة للمقعد (٢٥ الى ٣٠ درجة مئوية) او الحمامات الباردة (١٤ الى ١٨ درجة مئوية) . اما من جهة استعمال الدواء وغير ذلك من الارشادات فموكول امرها الى الطبيب ، ويجب انتدابه في الحال عند حدوث النوبة للبحث عن السببُ الحقيقي الذي أدى الى حدوث الخفقان والعمل على ازالته

﴿ الأوجاع في منطقة القلب ﴾ من أفيد الطرق لازالة هذه الأوجاع عند الذين يصابون بهـا هو وضع كيس مطاطي مملوء بالثلج على منطقة القلب . ويمكن كذلك للغرض نفسه استعمال المحوّلات على الجلد révulsions cutanées وعلى الخصوص اللبخ الخردلية ، أو استعمال أوراق الخردل التي تباع جاهزة في الصيدليات وأحسنها أوراق خردل Rigollo فتوضع منها اثنتان على الأقل الواحدة بجانب الأخرى على منطقة القلب بعد غمس الورقة أولاً في ماء ساخن مدة بضع ثوانٍ ، ثم توضع في الجهة التي بها الخردل على المحل المعين ، وتُمسك باليد او تُربط حتى يحصل تأثير منها اي حتى ظهور احمرار على الجلد ويشعر المصاب بمفعولها الشديد ثم تنزع بعد ذلك من مكانها . ويمكن تكرار استعمال هذه اللبخ او اوراق الخردل اذا

لزم الأمر بوضع اخرى في اماكن بعيدة عن الأولى كبطن الساقين مثلاً .

وتزداد فائدة هذه اللبخ والمحولات الخردلية بنوع خاص في حالة حدوث حصر الصدر (عبقة الصدر) وعسر التنفس عند المصاب ويوضع منها على بطن الساقين . كما انه يمكن أيضاً في هذه الحالة وضع كمادات حارة جدًّا على منطقة القلب ، أو فرك الظهر أيضاً بفوط مغموسة بماءٍ حار جدًّا . وحتى وصول الطبيب يُعطى المصاب فنجاناً من القهوة السوداء القوية مضافاً اليها ١٠ الى ٣٠ نقطة من محلول هوفمان . أما استعمال المورفين حقناً تحت الجلد فموكول أمره الى الطبيب إذا رأى لزوماً لذلك . كما انه لا يجوز اعطاء البروموور تحت أي شكل كان بدون موافقة الطبيب أيضاً . وقد أفاد في كثير من الأحيان اعطاء المصاب قدحاً من الليموناده المثلجة التي هي من أحسن المسكنات . واذا لم تأتِ الوسائط المذكورة بالفائدة المرجوة فيلجأ إذ ذاك الى فرك راحة اليدين والقدمين بالكحول أو الكولونيا ، أو تغطيسها بالماء الحار وحدهُ أو مضافاً اليه قليلاً من الخردل وذلك لمدة بضع دقائق ، ويجب تكرار ذلك مرات عديدة اذا لزم الأمر . واذا بدت على المصاب أعراض اختناق أو عسر التنفس فيجب فتح الأبواب والنوافذ لدخول الهواء ما أمكن ، وتهوئة وجه المصاب بالمروحة ، ومن النادر أن تؤدي نوب القلب الى الوفاة إلاّ إذا تكرر حدوثها وباتت خطراً حقيقيًّا على حياة المصاب وفي هذه الحالة تحدث الوفاة خلال بضع ثوان في أثناء النوبة . وعلى كل يجب أن يخلد مثل هؤلاء المصابين الى الراحة التامة والهدوء الشامل وكلما قلَّ عدد الأشخاص حولهم كان ذلك أفضل لهم . وقد كانوا قبلاً يستعملون الفصاد في أحوال كهذه ، غير أن هذه الطريقة صُرف النظر عنها حالياً ولم يلجأ اليها الأطباء إلاّ في ظروف نادرة جدًّا .

وفي بعض الأحيان يأخذ المرض لسوء الحظ شكلاً خطيراً وتبدو على المريض أعراض ضعف القلب وعدم قدرته على العمل Asystolie ، ثم تزداد هذه الأعراض شيئاً فشيئاً وبدون انقطاع مما ينذر بحدوث اضطرابات من ناحية الدورة الدموية فيمسي القلب غير قادر على الانقباض أو التقلص بالقوة الكافية لافراغ تجويفاته من الدم إفراغاً كاملا مما تؤول نتيجتهُ الى تمدد هذه التجويفات وبالتالي عدم وصول مقدار الدم بالكفاية الى مختلف الأعضاء ، ثم ان الذي يصل الى هذه لا يكون حاملاً إلاّ مقداراً قليلاً من الاوكسجين فيحدث إذ ذاك هبوطاً محسوساً في ضغط الدم وضعفاً في قوة التيار الدموي ، والقلب نفسه يغدو إذ ذاك عاجزاً عن التغلب على المقاومة أو الضغط الواقع عليه فينشأ عن هذه الحالة ركود دموي في مختلف أنحاء الجسم وعلى الخصوص في الرئتين حيث تزداد أعراض ضيق التنفس عند المريض . وذات الركود الدموي يحدث أيضاً في الاطراف السفلى (الساقين

والكواحل) ، ثم تبدو الوزمة وهذه تمتد شيئاً فشيئاً الى البطن فالقسم الاعلى من الجسم). وسبب ذلك ان الأوردة تتمدد من اجتماع الدم فيها فينفذ السائل من جدرانها الى الأجزاء المجاورة . ثم تتناول هذه الوزمة الكبد والمعدة والامعاء ، ويكون مجرى اللمف متأخراً والاضطرابات الوظيفية شاملة . وفي الدور المتقدم للمرض يزداد تجمع السائل في النسيج الخلوي تحت الجلد وفي البريطون وغشاء الرئة والتامور . وبكلمة واحدة يحصل استسقاء عام في كل انحاء الجسم من ارتشاح القسم المائي في الدم من جدران الاوردة في النسيج الخلوي وفي تجاويف الجسد بسبب حاقة الدورة الدموية . لكن بالرغم من هذا كله ففي الامكان تلطيف هذه الحالة واراحة المريض وعلاج قلبه العليل . ولا ينكر ان معظم هؤلاء المرضى الذين يصلون الى هذه الدرجة من العجز والاعياء يجب ان يحاطوا بالعناية الفائقة والرعاية التامة ويأخذوا حظاً عظيماً من الراحة . فاذا ما توفرت لهم فعلاً هذه الشروط الجوهرية ، مقرونة بالعلاجات اللازمة التي يصفها الطبيب ، أمكن حينئذٍ تحسين حالتهم وحفظهم مدة طويلة في حالة صحية مرضية نوعاً فوق ما كانوا يقدرون بعد أن كان يخشى ان يتخطفهم الموت في بضعة أيام .

﴿ الأدوية ﴾ : يجب أن نقول هنا ان عدداً كبيراً من المصابين اصابات خفيفة بأمراض القلب ليسوا في حاجة الى تعاطي الأدوية او فقط الى تعاطي بعضها عند مساس الحاجة اليها . كما ان الذين لا يزال قلبهم يقوم بوظيفته على أحسن حال بالرغم من اصابة الصمامات بالمرض يمكنهم ايضاً الاستغناء عن الأدوية سنوات عديدة . أما حالات المرض الخطيرة التي يكون فيها القلب ضعيفاً جداً ولا سيما اذا كان مقروناً هذا بوجود استسقاء او ارتشاح عام في الجسم فاستعمال الأدوية أمرٌ ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه . فالديجيتال يؤدي في هذه الحالة أحسن الخدمات ، والعدد العديد من الأطباء يعتمدونه خصوصاً في مكافحة ضعف القلب ، بل أنه يعتبر في نظر الكثيرين منهم من أثمن الأدوية في العالم بشرط ألاّ يساء استعماله وأن يتم ذلك تحت اشراف الطبيب بنفسه .

ويرجع الفضلَ الأكبر في اكتشاف خواص الديجيتال الفسيولوجية الموجودة في أوراق هذا النبات الى الطبيب البافاري ليونار فوش Léonar Fuchs في عام ١٥٤٩ . ولم يمض على اكتشافه زمن طويل حتى عرف اكتشافه هذا في انكلترا . أما في فرنسا فلم يعرف ويبتدىء انتشاره الاّ في عام ١٨٢٢ حيث قام علماؤها وعلى رأسهم F. Frank و Lancelot و Homol وغيرهم بدرس خواص هذا النبات درساً وافياً . وقد أيدت الاختبارات العديدة أن الديجيتال أطال حياة الألوف من المصابين بالقلاب ويُستعمل في جميع حالات ضعف

عضلة القلب ، والخفقان وسرعة دقات هذا العضو (Tachycardie) ، وهبوط ضغط الدم ، وعدم انتظام النبض وسرعته الخ ويؤخذ اما مسحوقاً أو منقوعاً (منقوع الاوراق) أو بشكل حبوب أو سائلاً (صبغة الديجيتال) الخ . وعلى كل لا يجوز استعماله مطلقاً كما قلنا الاّ باشارة الطبيب الذي هو نفسه يصف المقدار اللازم من الدواء وفقاً لحالة المريض الراهنة وللمدة التي يراها ضرورية للعلاج به . ذلك ان الديجيتال يتجمع بالسهولة في الجسم ولا يتخلص هذا منه إلاّ بعد بضعة أيام . وقد أيدت الاختبارات ان غرامين من الديجيتال تتطلب ٨ إلى ١٠ ايام كى يتخلص الجسم منها — وهذا ما يبرهن لنا كيفية تراكم هذا الدواء في الجسم عند ما تعطى منه مقادير زائدة . ولذلك لا يصح استعماله مدة طويلة دفعاً لحدوث أعراض تسمم خطيرة كثيراً ما تكون وبالاً على المريض نفسه — بخلاف المقادير القليلة منه فانها تأتي بأحسن النتائج . ومجمل القول ان الديجيتال يقوي وينظم ضربات القلب فيأخذ هذا العضو في تفريغ محتوياته تماماً من الدم الذي يصل اليه ، ثم انه يرفع ضغط الدم الى المستوى الطبيعي ، والدورة الدموية تسترجع بدورها قوتها ونشاطها ، كما ان جميع أعراض ضيق الصدر وعسر التنفس تخف تدريجاً عند المريض بفضل الديجيتال الذي يفعل فيها حقاً ما يفعل السحر ! وبنفس الوقت يأخذ الورم ان يقل شيئاً فشيئاً ويستعيد المصاب راحته المنشودة ويستطيع ان ينام نوماً مريحاً نوعاً ما .

أما الاستسقاء نفسه المسبب عن ضعف القلب والذي قد يبلغ احياناً نحو عشر لترات فيكافح بالبزل وهذا من متعلقات الطبيب . ويساعد على ذلك استعمال الطرق الطبيعية وأعني بذلك الافراز بواسطة الكلى والجلد . ولهذه الغاية يعطى بعض المعرّقات او النباتات المدرّة للبول مثل حبوب العرعر baies de genevrier . فيؤخذ قدر ملعقة حساء من هذه الحبوب وتدق وتوضع في كوب ماء حار جدّاً وتصفى ثم يتناول المريض هذه الخلاصة . وهكذا قل عن النباتات الأخرى المعرقة والمدرة للبول . وعلى كل فأمراض القلب سواء أكانت ناشئة عن امراض معدية ام غيرها فتتطلب من بداية الأمر الراحة التامة التي هي احسن علاج للمريض والتي تمهد السبيل للشفاء ، ثم اتباع النصائح والارشادات الأخرى التي يراها الطبيب موافقة في مثل هذه الأحوال .

الدكتور عبده رزق
طبيب مستشفى الميناء والملاحة بالفاو : العراق

القديم
وأثره في الحديث

إن من يزور « روما » فيترك حي « الـكورسو » ، وينحدر مطوفاً نحو « التيبر » مخترقاً ذلك التيه المؤلف من الأزقة الضيقة المفعمة بفتيان عاصمة ايطاليا الحديثة وشيوخها ، يمسه ضربٌ من الغبطة في تتبع تلك السجلات الصخرية التي خلفتها الأجيال المتعاقبة من الرومان ، والذين يجوس اليوم اخلافهم خلال ديارهم . فاذا استدار بعد ذلك دورة ، وقف أمام حَـرَجَـةٍ من الأعمدة الآخاذة ، برغم تهدمها ، أعمدة المدرَّج العظيم الذي شيد عند ما عرف ذلك المـكان باسم « كامبوس مارتيوس » وكان مسرح اللهو لرعايا الامبراطور « هدريانوس » .

بين الأعمدة جدران شيدت من كتل عظيمة من الصخر « التيبورتي » ، نقضت من بناء امبراطوري آخر ، وبني هنالك ليكون حصناً غليظ الهيئة مظلم الجنبات ، في تلك الأيام التي كان يهب فيها أسر من مثل « أورسيني » أو « كولونا » الى السيف ، اذا وقع التشاحن على انتخاب « ليون » أو « غريغوري » لمقام البابوية .

هنالك قد تقع على طنف رفيع الفن من عصر النهضة ، صنع في حياة « برامنتي » أو « مِيكْلِـنْـجِـيلو » . بينا ترى هنا أو هناك شيئاً من ملاط المرمر فوق بناء « الأتـوسَـنْـتو » وقد تسلخ وانقشر بما صادف من عنف رجال « غاريبالدي » ذوي القمصان الحمر ، أو رجال « موسوليني » ذوي القمصان السود .

ثم اعبر شارعاً مزدحماً وانعطف الى زقاق يفصل صرحين من الصروح المعروف أمرها في القصص ، فانك تقع على احتفال « فاشستي » أقيم أمام قبر « فتريو إمانويل » في كنيسة « سانتا ماريا روتوندا » ؟ وكانت من قبل مدفناً تكريميًّا أقامه « هدريانوس » تخليداً لذكرى الفرق الرومانية ، التي غزت كل آلهة الشرق .

عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، استعمر الأخلاف ما شيد الأسلاف ، وحوَّروا عمائرهم بمقتضى أغراضهم ، فاحتفظوا بها بعض الأحيان كاملة كما هي ، وقوَّضوها حيناً آخر ، وأقاموا بأنقاضها عمائر حديثة . هذا والحياة متدفقة ، جياشة ، تزدحم بدورات الوجود والأمل والفشل والموت ، في ظل عاهل أو سيد أو بابا أو ملك أو أفاق مستبد ، سواء في ذلك مظاهر نشاطها الحديث ، أو مظاهر تعفيتها على ما انقضى من الأعمار .

وفي الحق أن «روما» مدينة خالدة . خالدة بقدمها ، في صورها وجدرانها المدعمة ، خالدة بحداثتها ، في آمالها ومراميها ، وكأني بها رمز الانسانية التي اقتبلت تلك المدنية ، فهي صرحها ومركزها .

ذلك بأن تاريخ المدنية البشرية ، انما هو قصة تشابه ما روينا ، جهدٌ يبذل وآثارٌ تقام ثم تتكيف وتضخم على الاستمرار ، وتمضي في سبيل يلائم بينها وبين مجاري الحياة . رواية الجدران القديمة يهدمها الزمن ثم تتقوَّض ، ثم تبنى ثانية في صور جديدة . رواية الإفك والعدوان تمتد بهما أيدي الهمج الخشنة الغليظة الى الآثار القديمة ، رواية الكنائس التي يحوطها بالعناية المؤمنون ، والقصور والدساكر تسوىَ بالأرض لتعبد طريقاً ، رواية المجالس التشريعية تلتئم في أبهاء القصور التي شيدها أمراء عصر النهضة ، والدعوة الشيوعية تضج بها النوادي التي عمرها أشراف « روما » .

أما إذا كان أثر القديم في الحديث غير بين في جميع النواحي ، بيانه في مدينة الكرسي البابوي ، فانه من الحقائق الثابتة أن الآراء والمعتقدات والغايات والمثاليات التي ينطوي عليها صدر فلاح في أقصى الغرب من أميركا ، أو عامل في أقصى الجنوب من استراليا ، إنما فيها إثارات وبقايا من الأشياء التي ورثت خلال العصور المتتالية ، صبت في قوالب جديدة لتلائم حاجات الزارع الأميركي ، والعامل الاوسترالي . ولو جلت جولة في نواحي العقل الحديث ، لانكشف لك عما فيه من تراكب العقائد وتراكمها طبقة على طبقة ، وقد ظل ذلك مطرداً غير منقطع خلال الأحقاب المتطاولة ولاستبان لك ما فيه من أشتات الآراء المستجمعة من هنا ومن هناك ، وقد حبكت معاً ثم شيدت بناءً قام أساسه على قسط وافٍ من دواعي الانحلال والتضعضع ، وفي جدرانه عدد من الثغرات ، ولكن من ورائه قوة العقل تعمل على تدعيم ذلك الأساس وسد تلك الثغرات ، ليكون ذلك الهيكل في مجموعه قادراً على تلبية قوامر الحاجة ، والقيام بوظيفة الحمى والسكن ، حتى تأتي القوة التي ترفعه درجة أخرى نحو الكمال .

فقد يعتقد الانسان في العصر الحاضر ان ذرَّة الزئبق يمكن تحويلها الى ذرَّة ذهب ،

وأن عيسى الناصري قد قام من بين الموتى وانه الآن جالس الى يمين الذات العلية ، ذات الله ، وأنه من الفخر أن يموت الانسان في ميدان الحرب دفاعاً عن وطنه ، وأن كل المشاحنات التي تقوم بين الدول ينبغي أن تعالج وتفضَّ في محكمة عالمية ، وان الاتحادات بأنواعها وبمختلف صورها يجب أن تحل وتلغى ، وان دنيا الحياة الانسانية ينبغي أن يفسح المجال فيها للديمقراطية حتى تظل سالمة آمنة . ومع كل هذا فان الانسان الحديث ليؤمن بهذه الأشياء ، وليس في نفسه غير خيال ضعيف عن أصل نشوئها ومعانيها وقيمتها لحياته التي يحياها . خيال أشبه بما يقوم في نفس الطفل الروماني ، الذي يمرح بين الآثار المخلّفة عن أسلافه الأولين .

◆ ◆ ◆

ان من بواعث الابتهاج والغبطة أن نكشف القناع عن نواحي العقل الحديث وثناياه وشعابه المستخفية في تضاعيف الجيل الحاضر ، وأن نفحص عن كل خيط من الخيوط التي تؤلف سداه ولحمته ، وأن نتعقب بداياته منذ أول ظهورها منسوجة على نول الزمان . ان ذلك لأبهج للنفس وأرخى للعقل من جولة في جنبات « روما » وإن ذلك لأكثر من باعث على الابتهاج والغبطة . إن له لوزناً كبيراً ، عند من يريد أن يتفهّم حقيقة الحياة الحافّة به ، ويفقه طبيعة قواها العقلية ، ويتبين ما يحتمل أن يندفق فيه تيارها من الاتجاهات ، ولعله يأخذ المجداف في يده ، فيمخر فيه .

إن الآراء لمن أبقى الأشياء التي تمخّضت عنها المدنية . والآراء التي تحوم اليوم في العقول الحديثة ، لها أصولها الممتدة إلى ماضٍ لا تعيه الذكريات . ومن طريق العقل يستطيع الانسان أن يصل نفسه بآباء عريقين في القدم . وان صلته بهم عن طريق العقل ، لأوثق حتى من صلته بهم عن طريق الاتصال الطبيعي والعلاقة السلالية . ويصدق هذا خاصة على أميركا. فانها برغم ماضيها القريب هي جزء من المدنية الاوربية ، كروما نفسها . ومن أجل أن نفهم حقيقة العلم والدين والفن والمثاليات الأدبية في العالم الحديث ، ونقيمها ونقدرها حق قدرها ينبغي أن نستوعب عظائم ما وصل اليه الانسان في سالف عصوره ، تلك العظائم التي شيدت ذلك الصرح الفسيح ، الذي تطوّف في أنحائه اليوم الروح الانسانية .

إن الحاجة الملحة في أن نحلل معتقدات الانسان ونتتبع بداياتها ، إنما ترجع الى حقيقة أن الآراء ليست كآلهة « أوليمبوس » ، باقية أبدية ، ثابتة دائمة الشباب . وهذه الحقيقة على ما لها من بالغ القيمة والأثر ، قد أغفلها العديد الغالب من الباحثين . إنها ككل الأشياء البشرية ، تولد وتنمو وتنضج ، وقد تموت .

للآراء صفة الحياة ، وكل ما هو حي ، لا بدَّ له من بيئة ينتعش فيها ويعيش ، كما ينبغي له أن يتكيَّف بها . والناس ينظرون في مجمل معتقداتهم ، نظرتهم إلى التلال التي يرفعون اليها أبصارهم ، فكأنها ثابتة غير متغيرة ، وكأن كل انحراف عنها ، انحراف لا يقرُّه الطبع ولا يجيزه العقل . أو انهم يتخذونها كما يتخذون قطع النقد المسبوك من خالص الذهب ، فيعتقدون انها صالحة للتعامل بها في كل زمان ومكان . فالنصرانية والعلم والديمقراطية والملكية الخاصة ، على ما يتخيلون ، كانت ولم تزل ، وسوف تكون ولا تزول . فالانقلابات التي يعترفون بأنها واقعة في عالم الأشياء المادية ، لا يرى إلاّ الأقلون منهم ، أن مِثلَها قد يقع في عالم الروح ، الذي هو أقل وضوحاً من عالم المادة . وليس ذلك لأنهُ من المتعذر ان ندرك ان الانسان قد اعتقد في عصر مَّا عكس ما يعتقد اليوم ، ولكن لأنه من المتعذر علينا أن ندرك انه اعتقد حقيقة بتلك المفارقات البعيدة عن العقل ، وانه آمن بها وأخلص لها ، إيماننا وإخلاصنا لما نعزُّ ونحترم من يقينيَّاتنا ، وربما لم يقم عنده من الدلائل على صحتها إلاّ النزر اليسير .

إن تعقب تاريخ هذه المعتقدات في نشوئها وتطورها النمائي ، قد يولد فينا حسَّا ندرك بهِ شيئاً من التلاؤم الذي يقوم بين الآراء وقوالبها الاولى ، ونعرف بهِ أن صحتها انما تُستقرأ من بيئاتها التي نشَّأتها ، وان منفعتها تظل ، ما دامت تلك البيئة تغذيها وتربيها .

• • •

إذا شبَّهنا عقول الناس بنقوشٍ تراكبت فيها المعتقد فوق المعتقد تراكب اللون فوق اللون ، كان من مهامّ العقل البشري الكبرى أن يفقه تاريخ حياة هذه المعتقدات ، ولماذا وجدت ، وهل من حقها أن توجد ، أم انه ينبغي أن تنبذ وتهمل ؟ ما هي تلك الموجات الفكرية العظيمة والآمال المتوثبة التي خلفت من ورائها تلك الرواسب المتراكمة ؟ عن أيٍّ من الاشياء عبرت عند ما حملها الفيضان ، وما قيمة الأشياء التي خلفتها للعصر الحاضر ، وما هو الجديد الذي ينبغي للانسان أن يبحث عنه ، ليقوم بواجبه نحو تجديد الحضارة ؟ ذلك التجديد الذي لا ينقضي أمده ، ولا تنتهي دورته .

إذا انتهى المرء الى معرفة المواد التي تهيئها له الدنيا الحافّة به ، والمصادر النفسية الحالة فيه ومنها يستمد ، بقي عليه أن يستوعب الماضي ، ويعرف أثره في الحاضر ، ثم يتفهَّمه ويحكمه ، حتى تكون له السيادة عليه .

أساطير القدماء
ودلالتها

إن أساطير القدماء وعقائدهم وخيالاتهم ، قد تمدنا بأداة ندرك بها الفرق بين ما أكبّ القدماء وأهل العصور الوسطى على اليقين به ، وبين العقائد والأفكار التي تذيع في هذا العصر . ان تلك الاشياء كانت في العصور الأولى من المسلمات التي لا تحتمل الشك ، في حين انها وان كان لها مثيلات تنتشر اليوم بين الطبقات الدنيا ، فانها أشياء قد دخلت بالشك عند الأوساط من الناس ، ورفضها أهل الطبقات المنتقاة .

ولا شك في أن بعض الناس يعتقدون اليوم في أهل كثير من البلاد النائية عن مواقعهم الجغرافية ، معتقدات أساسها الوهم والخيال ، غير انها خيالات وأوهام نشك في أنها قد تبلغ من الخطأ مبلغ تلك التي ذاعت في القرن الثامن عشر مثلاً . وان هذا لهو « المقياس » الذي نقيس عليه مقدار ما أثر الأسلوب العلمي في العقول ، من حيث القضاء على الوهم والخيال في أدمغة الناس .

الانسان الذي عاش منذ ستة قرون مضين ، غير انسان الزمن الحاضر . كان في عقله متسع لأن يصدق أي شيء وان يتقبل كل ما ينقل اليه ، مصدقاً به مسلماً بكل ما هو منابذ لطبيعة الأشياء أو بعيد عن مألوف الواقع ، إذا ما نقل اليه عن سلطة يحترمها أو مصدر يجله . وكيف يستطيع ان يرفض أقصوصة تقص عليه أو واقعة تنقل اليه ، وهو في حياته اليومية على انتظار ما يقع فيها بين لحظة وأخرى من معجزات وخوارق ، كلها على النقيض من سياق الأشياء الطبيعية ؟

من فوقه في السماء ، ومن تحته في الأرض ، عوالم مفعمة بجواهر عاقلة مريدة ، شياطين وملائكة وسلائل عجيبة التكوين من أنسال الآلهة ، وفوق ما فيه من استعداد إلى تلبية نداء

الله أو الشيطان — إذ كان يتعذر على القلب ان يحكم أية من الناحيتين تناديه — فيقودانه حيناً الى الخير والخلاص ، وحيناً الى الخطيئات واللعنات .

القديسون والذين هم على اتصال بالقوة القدسية هم صنائع الله الذين أمدهم بقوة من عنده على اصطناع الخوارق والأعاجيب والمعجزات ، لتكون وسيلة الى ايقاظ الورع والتقوى في نفوس المؤمنين ، وإلى جنبهم الشيطان وعماله يشنون حرباً مستمرة لاهوادة فيها ليزعزعوا ما ثبت في أطهر القلوب وأنقى الأفئدة من بواعث الخير والطيبة والاستسلام .

إن هذا الاعتقاد الثابت في امكان حدوث المعجزات ، قد أنشأ في عقليته اتجاهاً اصطبغت به كل الأشياء في العصور الوسطى ، من الحوادث البسيطة في مجرى الحياة ، الى الوقائع الكونية التي تصرفها العناية الالهية . وعلى العكس من هذا كله تجد العلم الحديث ، فانه لا يبحث وراء الغاية التي من أجلها وجدت الاشياء في هذه الدنيا ، ولا يجري وراء المعنى الذي يختبىء خلف وجودها . إنه يصف « كيف » تحدث الأشياء « ولماذا » تحدث .

يقول « سنتايانا » :

> قد نتكلم بعض الأحيان كما لو ان القول بخرافة الخوارق او الاعتقاد في المعجزة ، هو في ذاته رفض لشمولية القانون الطبيعي ، او وحي توحى به الينا رغبة في تشويش تجاربينا وقمع قدرتنا الفكرية او العقلية . وليس من فرض هو أبعد عن الحقيقة من هذا الفرض . فان كل خرافة انما هي شطيرة صغيرة من العلم ، يبعثها في أنفسنا رغبة في ان نفهم وان نتطلع ونستنبىء وان نحتكم في شيء من خفايا العالم المنظور ، وقوى الفضيلة أو قوى الفرد الحي ، أقرب الى الفهم وأطوع على الاستيعاب من السنن الآلية الشاملة القريبة منا . اذا عرفنا ذلك علمنا أن أساس الخرافة والمعجزة امر قريب من أنفسنا وعقولنا . قد يرى الانسان في المعجزة طريقاً الى طلب الرحمة ، او وسيلة الى اثبات وجود السلطة العليا في الخلق أو رغبة من نوع ما تجبرنا على الاعتقاد بها . وعلى الضد من ذلك ، نجد ان قانوناً آلياً ان كان في الواقع تسجيلا لما يجري في العادة ، فهو في ظاهر نظام الاشياء أمر لا عقل ولا رشد فيه . فان حادثاً من حوادث الطبيعة يستعصى على التفسير ، ولا يستظهر منها قصد معين معروف ، لا يدخل في نطاق المعجزة . على ان ما يدهشنا من أمر المعجزة والاعتقاد فيها ، انه على العكس مما رأينا فيها من قبل ، قد يرى الآن ان لها أساساً صحيحاً حقاً بَرَّرَ الاعتقاد فيها زماناً ما .

من ثمت نجد أهل القرون الوسطى في توثبهم إلى فهم الدنيا الحافة بهم ، قد أيقنوا بأن القصد يختفي من وراء الاشياء ، والغاية تكمن خلف ظواهرها ، وان هذا القصد وتلك الغاية قد يكتشفان عند حدوث أي حادث . كذلك رأى أن ارادة الله هي السبب الغائي لوجود الكون ، وان هذه الارادة إن استعصى على العقل الكشف عن معضلاتها ، فانها على الأقل تهيء للانسان فرصة الوقوف على معنى الأشياء وصبغتها العقلية .

لا شك في أن الانسان الذي يعيش في مثل هذا الجو ، من شأنه أن يفعم الدنيا المحيطة به بذوات عاقلة يتخيل وجودها وقوات روحية يتصورها ، ويتوقع حدوث ما لا يمكن توقعه من أحداث الدنيا ، ويضفي على كل ذلك قيمة موهومة وكذلك لا يبعد على ذهنه أن يقبل فكرة أن هذه الذوات وتلك الأرواح قد تعمل على اثبات وجودها وتحقيق أثرها باحداث خوارق ومعجزات .

• • •

ان حياة القديسين ، وكانت من أشهر ما يخاطب القلوب في العصور الوسطى ، تزخر بذكر أشياء خارقة للطبيعة ، وقد سجلت في المخلفات التي تركها هؤلاء القديسين وأقيمت لاحياء ذكراها الاحتفالات ونظمت المهرجانات . ولا مشاحة في أن هذه الخوارق كانت الطريق المعبد الى القداسة .

أما الشيطان وأنصار الشيطان ، فكانت أشياء حقيقية واقعة في معتقدهم ثابتة في روعهم ، وأن قدرة الله وقوة ملائكته كانت كثيرة ما تعبأ بين آونة وأخرى لتعلن عليهم الحرب بعد الحرب والغارة بعد الغارة . وكانت مخلفات القديسين وتبريك الكنيسة والصلوات والتوسل والعطايا والتضحيات ، كانت الأشياء التي يلجأ اليها إذا حزب الأمر وثار ثائر الفوضى .

فسن القديس بطرس ، ودم باسيل ، وشعر دنيس ، وجثمان القديس مرقص الذي سرقه البحارة البندقيون ليكون في كاتدرائيتهم المرصعة بالجواهر على صفاف ضحاضحهم ، وبيت العذراء مريم الذي طار بمعجزة عبر البحر الى « لورتو » عامة ذا قد اتخذت مصادر تستمد منها القوة التي يمكن بها رد البغي الانساني والغواية الشيطانية . ولقد رغب الناس في هذه رغبة محمومة حتى أن القديس لويس الفرنسي قد أراح نفسه بالاعتقاد بأن حملته الصليبية كانت فوزاً مبيناً وعملاً خالداً ، بالرغم من انه لم يهبط الأرض المقدسة ، لأنه استطاع أن يحضر معه قطعة من خشب الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح .

• • •

ولقد روى غريغوري الكبير قصة عن قديس ، تمثل بجلاء فكر الناس ومعتقداتهم في العصور الوسطى :

> في جبل مرسيتوس ، باقليم كامبانيا ، عاش رجل محترم اسمه مارتين سنوات عديدة في كهف ضيق . ولقد عرفه الكثيرون منا وأصبحوا شهداء على أعماله . ولقد سمعت عنه الكثير ، من البابا فيلاغيوس سلفي وغيره من رجال الدين الذين رووا ما اتصل بهم من وقائعه . وها هي ذي أولى معجزاته : فانه لم يكد يستقر في رأس

ذلك الجبل، متخذاً شقاً من شقوقه مستقراً له ، حتى انبثق ينبوع من الماء الجاري يكفي لسد حاجاته حتى يقوم بخدمة الله ، وكان جري الماء على قصد ، فلا أقل ولا أكثر مما يحتاج .... ولكن عدو الانسان القديم حقد على الرجل قوته ومنزلته، فعمل على أن يخرج هذا الرجل من كهفه متخذاً من شيطانيته وميله سبيلا الى ذلك. وقد حل في جثمان ثعبان ، وهو له صديق ، وحاول أن يفزع الراهب ويخيفه ويروعه ، عسى أن يهرب من مأواه هذا ، فجاء مع الشفق وانطرح أمام القديس عند ما كان يصلي ، ونام الى جنبه عندما أراد أن يستريح ولكن الرجل لم يذعر ولم ينزعج ، وقد يمد أصبع يده الى فم الحيـة أو يمد اليه قدمه ويقول له : « اذا أردت أن تنهشني فاني لا أمنعك » . وبعد أن ظلت هذه الاشياء تجري ثلاث سنوات ، اختفى عدو الانسان الاقدم فجاءة منهزماً أمام قوة احتماله وصبره . واتخـذ الثعبان طريقه من فوق الجبل الى مهواه صاخباً ، فأحرق اللهب الذي خرج منه جميع الاشجار التي كانت في ذلك المكان » .

• • •

مثل هذه الارواح الشريرة يعيش في الجحيم ، موئل العذاب الذي سوف يلقف أولئك الذين لم يقوموا بواجبهم نحو الله . ولقد سعدت جهنم العبرانيـة Gehenna بكثير من عناية الانسان في تلك العصور ، فوصفت أكمل وصف ، واختبرت مجملاتها ومفصلاتهـا أتم اختبار ، وارتيدت جنباتها القصية وأصقاعها الجحيمية ، وأضفيت عليها كل الأوصاف التي تخيلها القدماء والهمج . أما السماء فكانت بعيدة جهـد البعد ، نائية كل النأي ، هنالك فيما بعد القبة الزرقاء وفيما وراء كل الـكواكب المرئية . ولـكن قدرة الله قد تمتد فتصل الى كل ركن من أركان الوجود ، والى كل وقب مهما ذلّ وصغر من وقوب العالم المخلوق .

وكثيراً ما كان الناس يستمعون الى ما سوف يحل بهم من عقاب اذا عصوا ومن ثواب إذا أطاعوا ، وقلما كانوا يصغون الى شيء من هـذا من غير أن ترتعد فرائصهم فزعاً وروعاً . وكان هذا العالم ، عالم الغيب ، قريب كل القرب من مشاعر ريفي من الفلاحين أو تاجر من المدنيين ، بل ربما كان أقرب اليـه ، على ما يخيّـل اليه عقله وشعوره ، من بلاد كبلاد الهند ، أو من روما نفسها ، حتى لقد كان يتخيل المرء انه على عتبة الآخرة ، وانها أقرب اليه من حبل الوريد . على انه لا ينبغي أن يسبق الى حدسنا ان انسان ذلك العصر العادي أو الراهب الديني ، قد أمضى حياته أكثر حذراً وأمعن تقيـة ترقباً لتلك الدار الأخرى التي سوف ينتقل اليها ، أو ان التحقق من حدوث العقاب والثواب بعد الموت قد كان من بواعث الاحتكام في رغباته وشهواته ؟

لا شك في انه عمل على أن ينال الحلّ absolution وغفران الخطيئات ، وان نياته كانت ولا شك على أنقى ما يمكن بحكم الطبع البشري . ولـكن الجنة وجهنم ، كانتا من الأشياء

الواقعة لامحالة — وإن كل منكم إلاّ واردها — وانهما كمثل الأشياء التي تقع بالانسان من غير أن يكون له اختيار فيهـا كأن يولد وأن يموت . وما دام الأمر كذلك ، فليس من الفطنة أن يعنت الانسان نفسه في التفكير فيما هو محتوم انه يقع ، وان كان قريب الوقوع .

أما أشياؤه الدنيوية فاستوت على مجموعة من العادات والعرف والآراء المتـداولة بين الناس تداول النقد ، من غير أن يشرئب ذلك الانسان الى مجـالات جديدة من العمل أو أغوار جديدة من الفكر .

على هذه الصورة كانت دنيا الأوساط من النّاس في العصور الوسطى . وهي دنيا لاتبعد كثيراً عن دنيا كثير من أهل الريف في هذا العصر . وفي هذا دلالة على ان حركة « التنوير » الذهني قد مضت وئيدة الخطوات ، وان الخطوات التي خطتها ، كانت في مكان دون مكان .

أما الباحثون في علم الانسان فيقولون ان تيارات العقول التي عاشت في مثل تلك الدنيـا ، انمـا تعطينا صورة من تلك الخصائص العامة الشاملة التي تختص بها المعتقدات الانسانية حينما تعذر على العقل أن يتهذب باستيعاب التحقيقات العلمية . إن « العقلية البدائية » ، انما دعيت كذلك استناداً الى ما يستدل به عليها من عقلية أهل القبائل المتأخرة التي تعيش في العصر الحاضر . وهذه العقلية بذاتها هي التي دفعت بها عقول أهل العصور الوسطى ، فاحتكمت في تـكييف اللبانات العقلية ، حتى عند أرقاهم فهماً وأحدهم ذكاءً .

* * *

بالنظر في هذه المعتقدات التي ترجع الى تلك الأزمان القصية تجد ان انسان العصر الحديث ، إنما هو في حقيقة أمره كثير الصلة شديد القرب من همج تلك العصور ، لأنه لا يزال أبعد ما يكون عن شكية أهل العلم التجريبية . وان الخاصية الشاملة التي يتعلق بها هذا القالب العقلي ، سواء أوقعت عليها في جزر البحار الجنوبية ، أو في العصور الوسطى ، أو عند الخشابين في حرجات عصرك الحاضر ، انما تنحصر في افراط في الاعتقاد وتفسير كل حادث من حوادث الحياة تفسيراً تأثريًّا انفعاليًّـا ، وثقة يقينية في حقيقة تلك المعتقدات ، وكراهة عنيفـة في وضع هذه الأشياء موضع البحث ، أو جرها الى مجال الاختبار . وبالاختصار نقول ان مثل هذا العقل انما « يفهم » معنى كل الأشياء ، ولـكنه في الوقت ذاته لا يعرف معرفة تحقيق الاَّ مفصلات تتعلق بحياته اليومية المحدودة فهو من الجهل بالعالم بحيث يمكن أن تسلم به أتفه الأخطاء ، إلى أنكى الأخطار .

النظام الحزبي

في بريطانيا

نظرة تاريخية تحليلية

﴿ موالون ومعارضون ﴾ تنقسم البلاد عادةً الى أحزاب إذا فرّقت الخلافات السياسية بين أبنائها ، والوطنية دائماً هي المصدر الاول للحزبية ، أما في انجلترا فقد نشأت الحزبية من الخلافات الدينية. ففي سنة ١٥٣٣ قامت الكنيسة الانجليكانية القومية الرسمية بعد أن تحررت من سلطة البابوية وأصبحت خاضعة خضوعاً مباشراً للملك ، تستمد منه سلطانها ويعين هو رجالها ، وكانت تقوم الى جانب كنيسة الملك كنائس أخرى لا تخضع للبابا أو للملك ، إنما تتبع نظام الاصلاح الذي نادى به لوثر وكالفن ، وقد عرف أتباع تلك الكنائس بالمعارضين ، بالنسبة لغيرهم من الموالين للعرش وكنيسة العرش ، وكان النزاع بين الفريقين شديداً ، وقد أصدر البرلمان — وأغلبيته من الموالين — في النصف الثاني من القرن السابع عشر عدة قوانين تعسفية ضد المعارضين ، منها ما يمنعهم من حرية العبادة ، أو يحول بينهم وبين شغل أية وظيفة في الدولة ، أو يحرّم عليهم إنشاء المدارس ، فكان من شأن ذلك أن زاد حقد المعارضين على الملك وكنيسته .

﴿ « ويج » و « توري» ﴾ وحوالي سنة ١٦٧٥ تكوّنت جماعة سياسية أطلقت على نفسها اسم « جماعة الشريط الأخضر » جعلت هدفها مقاومة حزب الملك ، لما بدا من اعوجاج في سياسة الملك نحو فرنسا ونحو الكاثوليك ، فبادر أتباع الكنائس المعارضة بالانضمام الى هذه الجماعة ، فنشأ عن الفريقين حزب جديد قوي منظم يعمل على اضعاف نفوذ الملكيين الذين من ناحيتهم كان يجمعهم حزب لا يقل قوة وتنظيماً ، وقد أطلق الملكيون على المعارضين تهكماً بهم لفظة (ويج Whigs) كما أطلق المعارضون على الملكيين تهكماً بهم كذلك لفظة (توري Tories) وكلا اللفظين من ألفاظ السباب ، ويتضمنان معنى الخروج عن مبادىء الشرف واللفظ الأول من أصل اسكتلندي ، أما الثاني فمن أصل ارلندي. وهكذا وضعت أصول الحزبية في انجلترا

﴿ محافظون وأحرار ﴾ وعقب ثورة ١٦٨٩ أعلنت الحريات العامة في المملكة فقرّب ذلك بين الحزبين من حيث ولائهما للعرش والدستور ، ولم تبق بينهما إلاّ خلافات مبدئية

بسيطة ، وكان كل من الحزبين يتكوّن من طبقة النبلاء ملاّك الأرض أو كبار التجار ، غير ان الثورة الصناعية التي عمت اوربا خلقت طبقة جديدة ، البورجوازية الصناعية التي أخذ نفوذها يقوى وبدأت تطالب بتعديل اللوائح البرلمانية فيما يتعلق بحقوق الانتخاب والتمثيل النيابي وقد قوي ساعد حزب « Whig » بهذا العنصر الجديد ، فاتجه نحو سياسة من الحرية أوسع ، تشمل الحرية السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، ولما كان طابع الحرية هو أهم ما يميز خطة الحزب فقد أطلق على نفسه اسم حزب الأحرار وذلك منذ سنة ١٨٣٢ .

أما حزب « Tory » فبعد أن قاوم مطالب الرأسمالية الصناعية . وقد فشل في مقاومته اضطر أن يسلم للامر الواقع ، وكان على رأسه السير (روبرت بل) ، وهو من أصحاب المصانع ، الذي استطاع ان يستميل الى نظرياته المعتدلة عدداً كبيراً من أفراد الحزب ، وكانت لفظة « Tory » قد أصبحت مكروهة لماضيها غير الحميد ، فرأى أعضاء الحزب أن يستبدلوا بها لفظة أخرى ، ألطف وأخف وقعاً في نفوس الشعب وأقرب معنى إلى روح الحزب ، فاختاروا لأنفسهم اسم المحافظين ، وكان ذلك في سنة ١٨٣٤ .

﴿ المحافظون ﴾ والواقع ان معنى المحافظة لا يتفق كل الاتفاق مع روح الحزب بعد سنة ١٨٣٤ ، فقد أخذ الحزب يتجه نحو سياسة جديدة ترمي الى مراجعة الانظمة العتيقة لتبين أخطاء الماضي وإدخال ما يلزم من تعديل واصلاح بغير تقيد بالتقاليد وبغير تطرف وتسرع ، فهي سياسة اصلاحية تدرجية حذرة .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر ظهر على الحزب طابع جديد هو التمسك بالوحدة والاخاء ، ففي سنة ١٩٢٢ عند ما قامت حركة ارلندا الحرة ، تشبث المحافظون بفكرة وحدة (المملكة المتحدة) ، وفي أيام دزرائيلي وجوزيف تشمبرلن تعلق المحافظون بفكرة وحدة الامبراطورية البريطانية وتقوية هذه الوحدة بالعلائق الاقتصادية ، وفي أيامنا هذه يدعو المحافظون الى التجانس بين طبقات الأمة وعناصرها ، وهم يعضدون الملكية الفردية والنشآت الخاصة ، ولما كان معظمهم ملاكاً زراعيين فهم يولون الأرض والزراعة كل اهتمامهم ، هذا على الرغم من أن كثيراً منهم أصبحوا من الرأسماليين الصناعيين ، وليس حزب المحافظين مقصوراً على طبقات أو فئات خاصة ، فباب الانضمام اليه مفتوح لأي نوع من الأعضاء من أي الطبقات كانوا ، فهو حزب التآلف والتوافق يريد أن يجمع عناصر الأمة في وحدة أساسها الاخاء — لا المساواة — وأن يسير بالأمة في طريق الاصلاح بالتدرج والاعتدال لا عن طريق الثورة والتطرف ، هذا مع الاحتفاظ بالاطار — أو الشكل — التاريخي الذي نشأت الأمة البريطانية في داخله .

﴿ الأحرار ﴾ أما حزب الأحرار فجوهر فكرته الدفاع عن الحرية ، فقد دافع عن الحرية الدينية وعن حق المعارضين للكنيسة القومية في العبادة ، والتمتع بحقوقهم المدنية كاملة ، ثم دافع عن الحرية السياسية وعن حق كل فرد في اعطاء صوته ، وعن حق مجلس العموم في أن تكون له الكلمة الأخيرة الفاصلة في شؤون الامة ، ثم دافع عن الحرية الفردية حرية الفكر وحرية العمل في حدود الدستور والقانون ، وقد دعا الأحرار في بادىء الأمر الى الحرية الاقتصادية ، إلاّ أنهم بعد أن اتسعت الحركة العمالية ، رأوا أن للعمال حرية يجب أن تصان ، وأن هذه الحرية لا تصان إلاّ اذا تغير النظام الاقتصادي ، ففكروا في برنامج اقتصادي ديمقراطي يوفقون فيه بين حرية المنشآت الفردية وبين مصلحة العمال ، وطالب الحزب بأن يكون للعامل نصيب من أرباح المنشأة يمكنه مع الزمن اقتناء ملك خاص ، ويتضح وجه التقارب بين الأحرار والاشتراكيين في أمرين ، في تعضيدهم وتحبيذهم لاشتراكية جميع المنشآت التي تستطيع الدولة ادارتها خيراً من الأفراد ، ثم في محاولة ادخال مبدأ التعاون الاجتماعي ، إلاّ أن هناك عوامل كثيرة جدت كان من شأنها إضعاف مركز هذا الحزب، فقد تكوّن الحزب أصلاً لتحقيق الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية، وقد تمّ له ما أراد ، أما الحرية الاقتصادية فبعد أن دعا اليها انتهى الى تقييدها ، فكأنما هو يلغي نفسه بنفسه ، خصوصاً وان حزباً جديداً فتيّاً اقتحم ميدان السياسة البريطانية داعياً إلى تقييد الملكية الصناعية ، مثله مثل حزب الأحرار ولكن بصورة أوضح وعزم أشد ونشاط أقوى ، ذلك هو حزب العمال .

﴿ حزب جديد ﴾ كانت الامة تتوق الى سن قوانين اجتماعية ديمقراطية تحد من امتيازات الملاك الزراعيين ، وتحد من غلواء الكنيسة الرسمية ، وتعمل على تحسين حالة العمال، وتنظم توزيع الثروة الاقتصادية ، وتساعد على إظهار إرادة الشعب ، وكانت الامة ترتقب تحقيق تلك الآمال على يد حزب الاحرار . والواقع أن عدداً غير قليل من الاحرار أخذوا يسيرون في طريق الاشتراكية المعتدلة ، كما دعا بعض مفكريهم الى تغيير نظرية الحرية الاقتصادية والمنافسة الفردية ، كما دافع بعضهم عن الناحية الانسانية في الانتاج الصناعي وكان للأدباء الانجليز أمثال (شو) و (ولز) نصيب كبير فى هذه الدعوة .

ثم قامت حركة كبيرة تنتقد احتكار بعض النبلاء للأرض والزراعة وانحصار الملكية العقارية في المدن في أيدي عدد محدود من الارستقراطيين الأثرياء ، كما زاد نشاط اتحادات العمال ، وكانت الحركة العمالية تمتاز بالخصومة المستمرة بين العمال وأصحاب العمل أكثر منها بين العمال وبين الدولة ، إلاّ أن العمال بدأوا في ١٨٩٠ يشعرون بأن الحكومة لا تؤازرهم ،

ونشأ التنافر بينهم وبينها ، وفي نفس الوقت كانت الماركسية قد اتسع مداها في بريطانيا .

ففي ١٨٨١ تكوّن (الاتحاد الاجتماعي الديمقراطي) يضم العناصر المثقفة ويرمي الى نشر الشيوعية بين الشعب ، وفي ١٨٨٣ تأسست (الجمعية الفابية) تدعو الى اشتراكية الصناعة والارض والحكومة ، وفي ١٨٩٣ تكوّن (حزب العمال المستقلين) وقد بنى سياسته على الشيوعية المنقحة ، وفي ١٩٠١ اتحدت كل تلك الهيئات وانضم اليها جميع اتحادات العمال ، فنشأ حزب جديد قوي هو المعروف اليوم بحزب العمال .

﴿ العمال ﴾ تلك هي الظروف التي نشأ فيها (حزب العمال) البريطاني الذي أخذ نفوذه يطغى على حزب الاحرار وصار المحافظون يحسبون له كل حساب . وكلمة العمال هنا لا تعني عمال المصانع فحسب ، بل تشمل كذلك أصحاب المهن العقلية أمثال الاطباء والمدرسين والمحامين والصحفيين .

ونحن اذا درسنا سياسة حزب العمال على ضوء التصريحات التي أدلى بها زعماؤه ، استطعنا أن نقول انه حزب اشتراكي يرمي الى جعل وسائل الانتاج من الملكية العامة ، والى البحث عن خير النظم التي تستطيع الامة بها أن تدير وتراقب الصناعات والمنشآت ، إلاّ أن هذه المراقبة وتلك الادارة من جانب الامة ، ليس الغرض منهما مجرد تطبيق النظرية الاشتراكية من حيث هي نظرية ، إنما الغرض منهما الوصول الى حل عملي لرفع الضيق ومنع أسباب الشكوى ، وتحقيق المساواة الاجتماعية ، فرغبة الحزب إذن هي تحرير الشعب من القيود السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كان يرزح تحتها ، وهو يهتم بتلك الفئة من الشعب التي يرتبط مصيرها ارتباطاً مباشراً بالقدر الذي تؤديه من العمل للحصول على ضرورات الحياة .

يسعى حزب العمال الى ازالة الفوارق بين أفراد الأمة ، وهو في ذلك انما يتبع سياسة الحزبين الآخرين ولكن بنشاط أوفر وحماس أشد ، نظراً لحداثته ، وهو يكاد يكون اليوم أقوى الأحزاب البريطانية ، ومما زاد نفوذه انتصار روسيا العظيم في الحرب الأخيرة وظهورها بمظهر أقوى الدول الأوربية قاطبة ، وروسيا كما نعرف هي حاملة لواء الاشتراكية وحزب العمال كما رأينا آخذ بهذه النظرية ، وهو يعتبر نفسه اليوم الحزب الوحيد الذي يمكنه أن يتفاهم مع روسيا ، كما صرّح بذلك زعماؤه .

هذه نظرة عاجلة لتاريخ نشأة الأحزاب في بريطانيا وتطورها وسياستها ، وقد رأينا أن وجه التقارب كبير بين حزبي الأحرار والعمال ، لذلك يرى كثير من الكتّاب السياسيين أن بريطانيا لا تعرف اليوم في الواقع الاّ حزبين رئيسيين هما حزب العمال وحزب المحافظين .

ايليا نعمان حكيم

من أنواع النبات

الطبي

﴿ السُّنْبُل ﴾ ويقال له سُنْبُل الطِّيب والسنبل الهندي وسنبل العصافير والناردين يطلق على نباتين طيبي الرائحة يتداوى بهما . الأول من الفصيلة النجيلية ينبت في المنطقة الحارة اسمه النباتي Andropogon or Cymbopogon Nardus وبالانكليزية Ginger Grass وبالفرنسية Spicanard, ou Nard Indien يستخلص منه بالتقطير دُهن متصعّد يدخل في صناعة الصابون العطر ويستعمل في طرد البعوض . والثاني عشب من الفصيلة الفاليريانية ينبت في منطقة جبال هيمالايا اسمه النباتي Nardostachys Jatamansi وبالانكليزية Spikenard وبالفرنسية Lavande Indienne و Nard Indien وبالسنسكريتية « جتّالا » و « جتاماسي » و « جتامانسي » استعمل جذره العطري منهما .

﴿ السيساليون ﴾ ويقال السيسالي من Séseli باليونانية هو الانجدان الرومي نبات من الفصيلة الخيمية اسمه النباتي Seseli tortuosum وبالانكليزية French Hartwort وبالفرنسية Séséli de Marseille يُتداوى ببزوره مخرجة للارياح ومضادة للدود .

﴿ السَّيسَبان ﴾ شجيرة مصرية من الفصيلة القرنية سريعة النمو وتنبت في المناطق الحارة . أوراقها ريشية مضاعفة ظريفة وأزهارها صفر . اسمها النباتي Sesbania aegyptiaca وبالانكليزية Egyptian Sesban وبالفرنسية Sesban, ou Sesbanée تستعمل أوراقها مسهلة مثل السنا المكّي .

﴿ الشرنب الحجازي ﴾ هو الشبرُم عن الفارسية نبات من الفصيلة الاوفوربية له حب كالعدس أوراقه تشبه الطرخون أو العرعر . موطنه في منطقة البحر المتوسط وفي اسبانية

اسمه النباتي Euphorbia Pithyusa وبالفرنسية Euphorbe Pithyuse و Euphorbe à feuilles de genévrier لم أعثر على ما ينسب اليه الأطباء من خواص في الكتب الحديثة.

﴿ الششم ﴾ معرّب جشم بالفارسية ويسمى في السودان حبة العين وحبّ العين. واسمه العلمي Cassia Absus من الفصيلة القرنية وهو حبّ صغير أسود مستطيل يذرّ سحيقه في العين عقيب الرمد ليخصمه وأهل السودان يتداوون به أيضاً من مرض جلديّ يسمى القوباء Ringworm مسبَّب عن فطر .

﴿ الشَّلْشَكة ﴾ اسم يطلق على الجنطيانا وهو نبات من الفصيلة الجنطيانية منبته في أوربا وآسيا الصغرى في قلل الجبال الشامخة . اسمه النباتي Gentiana lutea وبالانكليزية Yellow-Gentian وبالفرنسية Grande gentiane و Gentiane Jaune . أصله شبيه بأصل الزراوند يستعمل يابساً في الطب مقوّياً مرًّا ومعديًّا وتستخلص منه مادة تسمى أروماتين يستعاض بها عن حشيشة الدينار في صناعة الجعة (البيرة) .

﴿ الشونيز ﴾ ويقال الشهنيز معروف في مصر بالحبة السوداء وحبة البركة وبالكمون الاسود حبٌّ نبات من الفصيلة الشقيقية منبته في منطقة البحر المتوسط ويزرع في مصر اسمه النباتي Nigella sativa وبالانكليزية Black Cumin وبالفرنسية Nigelle Cultivée و Toute-épice وهذا الحبّ عطر يتداوى بسحيقه مخرجاً للأرياح ومعديًّا ومدرًّا للعاب ويدخل في تركيب السعوط معطساً كما يستخلص منهُ شبه قلويّ يسمى نيجلّين .

﴿ الشيطرج ﴾ معرّب جيترك بالفارسية نبات من الفصيلة الصليبية منبته في أوربا وشمال آسيا والمشرق وقد تأقلم في مصر بحدائق القاهرة العتيقة اسمه النباتي Lepidium latifolium وبالانكليزية Dittander وبالفرنسية Cresson, ou Passerage à large feuilles وهو غير الخامشة المذكورة في مقال سابق . ولم أعثر على ما ينسب اليه الأطباء من خواص في الكتب الحديثة .

محمود مصطفى الدمياطي

باب المراسلة والمناظرة

الارواح

— عاد حضرة الفاضل الأستاذ احمد فهمي أبو الخير يناقشني في موضوع الروح تأييداً لعقيدة تحضير الأرواح . وقد اكتشف من مقالي السابق ان كل ما كتبته معروف لا جديد فيه لأنه ترديد للآراء السابقة التي سادت عقول العلماء في القرن التاسع عشر والتي اندثرت اليوم ازاء الفتوح الحديثة في العلم .

بالطبع لم أخترع كلاماً وأقوالاً ونظريات وانما اعتمدت في مقالي على ما تلقفته من كتابات كبار العلماء . واكتشف اني لم اطلع على مؤلفات تجينز وادينغتون واينشطين . بل اطلعت على مؤلفات الأولين وغيرها مثل بلانك والسير اوليفر لودج وبرتراند رسل وعلى بعض ما كتبه اينشطين. ولم أرَ انهم نادوا بانهيار مذهب آلية الكون لحطموا الكون المادي تحطيماً . وقال انه لم يصل الى علمي أن الكون المادي تبخر تحت ضوء علم الفيزيقيا الحديثة . نعم لم يصل هذا الى علمي لأنه لاهو ولا أنا تحطمنا وتبخرنا مع أننا نحن من الكون المادي.

يريد جناب الأستاذ اثبات وجود الروح باثبات تحطيم المادة . يعني ان المادة غير موجودة وان الروح وحدها موجودة . فليرشدنا الى أي مؤلف يتبسط بهذا الموضوع . نحن نعلم أن الفلاسفة التصوريين يعتقدون أن الكون الذي نراه لا وجود له إلاّ في عقولنا. ولهم في ذلك تفسيرات فلسفية . فهل يعني الأستاذ هذا ؟

ثم انه نقل عبارة من مقال لاينشطين عن « الأثير والنسبية » راجعتها مراراً فغمضت عني بعض آياتها ولاسيما قوله : « لا توجد من ثمت أية فترات فضاء زمنية بالمعنى الفيزيقي » فما هي فترات الفضاء الزمنية ؟ هل هي فترات زمكانية Space-time .

أما الاثير . فاني من أنصاره . وانما لا برهان عندنا على وجوده إلاّ أن بعض الظاهرات الطبيعية لا تعلل إلاّ بوجوده كأمواج النور العامدة لخط اتجاهها Transversal وغيرها أيضاً . ولهذا اعتقد ان الأثير موجود فعلاً وان كان ثمت لا برهان على وجوده، موجود لأن بهِ تستقيم حركات المادة .

واينشطين لم يجحد الأثير جحداً باتًّا وإنما لما رأى ان عملية ميكلسن لم تكتشف سرعة الأرض في الاثير قال ان نظرية النسبية تصح من غير حاجة الى الأثير .

ولكن أي أثير هو ؟ ما هو ؟ هو ما ذهب اليه علماء هذا العصر من انه الذرة الصغرى

التي تألفت منها المـادة والتي تنحل اليها أخيراً . فقـد ذهب تجينز وادينغتون واينشطين وغيرهما ان الالـكترون الذي هو الجوهر الأصغر السلبي في المادة التي نعالجها متى أطبق على البروتون وهو جوهر آخر ايجابي انفرطا الى فوتونات تذهب في الفضاء شعاعاً . الالـكترون ينحل الى عشرة آلاف فوتون . وكما كان البروتون يساوي ١٨٤٠ ألـكتروناً كان ينحل الى هذا الرقم مضروباً بعشرة آلاف . وفي رأيهم أن الفوتون هو ذرَّة الاثير . والاثير مادة ، فما هو غريب عن المادة .

وفي كتاب Ether and Realty للسير اوليفر لودج ما يستفاد منه ذلك أيضاً .

بناءً عليه إذا كانت الروح هيكلاً أثيريًّـا مطابقاً للهيكل الجسدي المادي خليةً خليةً فالروح إذن شيء مادي. وقد صرَّح بهذا القول حضرة الأستاذ أبي الخير نفسه في ردّه بقوله :

« الروح مادة لا تستجيب لها المشاعر . وقد وصـل العلم الى تصويرها بالفوتوغرافيا والأشعة الحمر والى وزنهـا كما وصل الى تصوير سيول الـكهرباء المختلفة ووزنها الخ »

فاذا كانت الروح مادة فهي اذن غير الروح التي يعنيها اللاهوتيون وفلاسفة الأديان

دعنا من الروح اللاهوتية والفلسفية وخلّنا في الروح المادية التي تصور فوتوغرافيًّـا والتي يشير اليها الاستاذ أبو الخير . هي ما نريد برهاناً على وجودها .

لاثبات الروح الاثيرية يوجه الاستاذ أبو الخير نظرنا الى العلم الروحي الحديث في الجامعات لانه يعتقد اني لم أسمع بهِ . ولعله يظنني من أهل نيام فيام لم أتتبع الحركة العلمية العالمية .

ولا أدري ان كان يعني بالعلم الروحي سبيرتيزم او Psychic research او شيئاً آخر . ويلفت نظري إلى كراسي لهذا العلم أنشئت في بعض جامعات اوربا الـكبرى والى حجرة تحضير الأرواح في جامعة لندن .

فاشكر له توجيهه هذا ونصحه. وليسمح لي ان أقول له ان وجود هذه المعاهد الروحية والعقلية ليست برهاناً على وجود الروح اثيرية وغير أثيرية . وانما هي دلالة على اهتمام العلماء في البحث العلمي فيما يلاحظونه من الظاهرات العقلية وفيما يزعمـه الزاعمون من الظاهرات الروحانية . فهم الآن في طريق البحث . الى الآن لم يثبت العلماء بالقواعد والطرق العلمية وجود الروح وماهيتها وخلودها الى غير ذلك . نحن صابرون منتظرون حين يدق ناقوس البشائر بظفرهم علميًّـا بالروح فيكون ذلك الحين عيداً عظيماً عند جميع البشر .

بقي أن الأستاذ أبا الخير يطلب مني أن اعلل الحادث الذي أثار هذه المناقشة وهي رؤيا رفعة حسنين باشا . وهو يعتقد اني لا أستطيع تعليلها ويؤكد لي أنه حادث حقيقي بدليل أن مجلة الدنيا الجديدة رددته — ما شاء الله .

نعم أؤكد لحضرة الأستاذ اني لا استطيع ان أعلل ذلك الحادث لأنه لم يحدث . ومن يستطيع أن يعلل ما لم يحدث الاّ في مخيلة راويه . لا أكذّب الراوي . هو صادق فيما روى ولكنه كان مخدوعاً فيما رأى شأن جميع الرؤى . ومثلها كثير كل يوم مع كثيرين من الناس . أقول ان تلك الرؤيا وغيرها هي وهم انخدع به الواهم . فعلى حضرته أن يثبت انه حقيقة وليس عليّ أن أثبت أنه وهم .

الفرصة سانحة الآن لأن أروي حكاية تدور حول وهم من هذه الأوهام .

كان هوديني مشعوذاً أميركيًّا مشهوراً . وقد دهش الناس بما عمله من الشعوذات العجيبة وكان من شعوذاته انه يستحضر الأرواح .

ولما قدم عهده وفرغ وطابه من عملياته التي لا تكاد تحصى عاد يكررها ويشفعها بتفسير لها . أي كان يعمل العملية ثم يفسر للشاهدين كيف عملها وكيف خدع أبصارهم . فكان هذا التفسير أدهش لهم من العملية . ولذلك كانت عمليات تحضير الأرواح عنده شعوذة . وأكد لهم ان كل دعوى من دعاوي محضري الأرواح انما هي زور وبهتان .

فثار عليه أنصار تحضير الأرواح وشجبوه . فلم يناقشهم وانما كتب بعض أسطر في ورقة وأودع الورقة في علبة وختمها وسلمها لجمعية المباحث النفسية . ثم طلب الى الجمعية أن تعلن بعد موته ان تحت يدها علبة تحتوي على كتابة من هوديني . فمن يستطيع ان يحضر روح هوديني ويستمليه ما في تلك الورقة فله جائزة ٤٥٠٠ ريال إذا طابق ما قاله ما كتبه . وتقدم الى الجمعية أستاذ أرواح ايطالي مدعياً انه يستحضر روح هوديني ويستنطقه مضمون الورقة . وعقدت جمعية المباحث النفسية اجتماعاً في دار مجلة الاكتشاف والاختراع في نيويورك حضرها علماء وصحفيون . وأعد الأستاذ الروحاني القاعة كما شاء من حيث التعتيم وتسويد الجدران ونحو ذلك وأرسل شاشة لكي تظهر عليها صورة هوديني ويسمع صوته منها .

وجاهد هذا الأستاذ مستعيناً برفيقته نحو ٣ ساعات بعد الظهر فلم ينجح . وأخيراً أعلنت رفيقته ان الأستاذ تعب فترجو تأجيل الجلسة الى حين آخر .

وفي اليوم التالي منحت الجرائد ذلك الأستاذ الروحاني حقه من التهكم والسخرية .

كان ذلك منذ نحو عشرين سنة وقد قرأت الخبر في مجلة الاكتشاف والاختراع . وأظن أن العلبة المختومة لا تزال في حوزة الجمعية معروضة لمن يطمع بجائزتها . فلعلّ أستاذنا أبا الخير يود أن يجرب حظه لا طمعاً بالجائزة بل رغبة في تقديم البرهان الدامغ على صحة علم استحضار الأرواح . وليكن الله معه .

نقولا الحداد

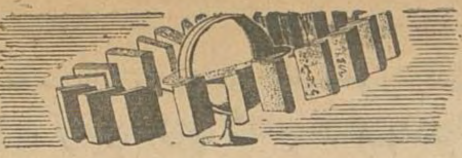

مكتبة المقتطف

الفلسفة الرواقية (١)

للدكتور عثمان أمين المدرس بكلية الآداب

هذا الكتاب احدى علامات الوقت في مصر والشرق العربي . موضوعه مدرسة واحدة من مدارس الفلسفة اليونانية ، يعرض المؤلف كل ما يتصل بها في قرابة ثلثمائة صفحة بالقطع الكبير ، ويحيل في الهوامش الى مراجع يونانية ولاتينية وفرنسية وانجليزية والمانية وعربية ، ويصادف معظم مسائل الفلسفة وتاريخها ، ويقف عند كل منها وقفة العارف المحص الموازن ، ويختتم بثبت جامع للمراجع في اللغات المذكورة مع ملاحظات عليها ، وبكشاف للاصطلاحات اليونانية ومقابلاتها العربية واللاتينية والفرنسية . كل هذا يعني أنه قد صار بيننا بحّاث هيأوا أنفسهم للبحث العلمي الدقيق وأحاطوا بمظانه وحذقوا طرائقه . وهو يعني فوق ذلك أن قد صار بين أبناء العربية جمهور يقبل على البحوث العلمية ، فيجد المؤلفون في تقديره بعض العوض مما يعانون . وهذه ثمرة التعليم الجامعي في أقل من عشرين سنة ، خليقٌ بالذين قاموا عليه أن يغتبطوا بها أشد اغتباط .

يعرض المؤلف ترجمات زعماء الرواقية في اليونان والرومان ، ويفصل آراءهم ، ويناقش مختلف الاقوال فيها ، بما لا يدع حاجة للاستزادة ، ويسلخ في ذلك أكثر من ثلثي الكتاب . ثم يعرض لآثار الرواقية ، فيتحدّث عن أثرها في التشريع الروماني وفي المسيحية وفي الاسلام وفي عصر النهضة وعند ديكارت وسپينوزا . وكنا نتوقع أن يصل الى كانْت ، وفلسفته الخلقية مدينة للرواقية بالشيء الكثير ، ولكنه لم يفعل . على ان الدكتور عثمان أمين أشار صراحة الى رواقية كانت (ص ١٠) فنستطيع أن نقول ان كتابه جاء صورة كاملة للمدرسة في نفسها وفي تاريخها .

---

(١) الكتاب الثاني من سلسلة « أعلام الفلسفة » الناشر مكتبة الخانجي سنة ١٩٤٥

واذا سمحنا لنفسنا بالتعقيب عليه ، وفاءً لحق النقد العلمي ، قلنا اننا وقفنا فيه عند أمور : منها ما نرى انه لا يذكر لغير المؤلف لاننا نقدر أن يكون له فيه رأي ، ومنها ما نرى الافصاح عنه هنا . وجملة ما سنورده ترجع الى رغبةٍ في تقريظ الرواقية تشتد بالمؤلف فيغلو ، فيكاد القارئ يتوهم انه لم يكن قبلها فلسفة ، وان كل فلسفة بل كل تفكير جاء بعدها كان صدًى لها . وقد نلتمس لحضرته بعض العذر في طول عشرته للمدرسة وانعام النظر في تعاليمها ونشدان المثل الأعلى في الأخلاق ، ولكن شيئاً من الأناة كان واجباً .

يرى حضرته اننا « اذا رجعنا الى آراء المسيحيين أنفسهم وجدنا منهم من يرى في المذاهب الرواقية « تمهيداً » للانجيل ، بل لقد ظهر باللغة الالمانية كتاب ذهب فيه صاحبه الى أبعد من هذا ، فقرر ان « الرواقية أصل المسيحية » وجعل هذه العبارة نفسها عنوان كتابه » (ص ٢٢٢) . وكان خليقاً بصديقنا أن يورد أولاً الفوارق العميقة التي تفصل بين المسيحية والرواقية . فالرواقية تقول بوحدة الوجود أو بتأليه المادة ، وبالضرورة المطلقة ، وبفناء الشخصية الإنسانية بعد الموت ، وبجواز الانتحار ، وتقول المسيحية بالروحية ، وبإله مفارق للمادة ، وبالحرية في الله والانسان ، وبنفس انسانية روحية خالدة ، وبعناية إلهية فعالة ، وبانكار الانتحار ، عدا عقائدها الخاصة التي لا يقابلها شيء في الرواقية . وكان خليقاً به ثانياً أن يستوفي المراجع في هذه النقطة . ونحن نحب أن يميز كتّابنا بين المسيحيين مولداً والمسيحيين عقيدة ، فإن من بين أولئك كتّاباً ملحدين متحاملين فلا تؤخذ أقوالهم على علاتها ، بل اذا قورنت بالردود عليها تبددت كالهباء . ونحب أن يميزوا بين أقدار الكتّاب ، فإن منهم الخطير ومنهم الصغير ، ومنهم من ارتفع صيته لسبب من الأسباب ثم سقط ، مثل رنان الذي ينعته المؤلف بأنه « حجة الباحثين في أصول المسيحية » (ص ١٨٢) . وأقل ما أقول فيه الآن إن أحداً من المعنيين بهذه الأصول لا يذكره أو يرجع اليه ابتغاء العلم . هذه مسائل دقيقة عسيرة للغاية نحب أن يتحاشى كتّابنا الخوض فيها فيتحاشوا الزلل . ولا نرى بأساً في أن ندل على مثال بسيط لما يستهدف له الكاتب في عقد الموازنات : ففي ص ٢٢٧ يقول المؤلف « ان بين المثل الأعلى الرواقي والمسيحي فرقاً عميقاً : فالرواقيون يرون أن الفضيلة عبارة عن مجاراة الفطرة الطبيعية ... أما المسيحي فيرى أن الفضيلة عبارة عن مكافحة الطبيعة » والحقيقة ان لفظ الطبيعة مشترك بين الطبيعتين الحسية والعقلية ، وأن المسيحي يرى مكافحة الطبيعة الحسية ، كما يكافحها الرواقي ، لتغليب الطبيعة العقلية التي يعنيها الرواقي . فالطرفان متفقان ولا خلاف بينهما البتة في هذه النقطة . فناهيك بالمقارنة بين أقوال الرواقيين وأقوال الأناجيل ورسائل بولس . يبقى أن

كثيرين من المسيحيين ، الذين تنصروا بعد رواقية وأفلاطونية ، وغيرهم من بعدهم ، أفادوا من الرواقية في تفصيل القول في الفضائل ، وأخذوا عنهم بعض الاصطلاحات ، وهذا ما كان يستطيع حضرة المؤلف ان يستقصيه ، وهذا شيء آخر غير جوهر العقيدة .

وفي الكتاب أمثلة أخرى على هذا الغلو في الاشادة بالرواقية . منها قول حضرته مع الأستاذ جلسون إن نظرية المعاني الفطرية « وردت على لسان ديكارت حاملة طابع أصلها الرواقي » (ص ٢٥٩) : وإذا سلمنا بهذا كان لزاماً علينا أن نلاحظ أن النظرية أفلاطونية قبل ان كانت رواقية . ومنها هذه العبارة « لكن انكار الأشياء اللاجسمية عند الرواقيين لا يفيد انكارهم للروحانيات ، بل كل ما في الأمر انهم يجعلون من الروح جسماً من الأجسام » (ص ٢٨٢) ! ومنها اضافة الفضل الى الرواقيين في أفكار عامة مشتركة بين العقول ، كالتي يذكرها في ص ٢٧١ وفي غيرها ، وتوارد الخواطر ظاهرة معروفة خصوصاً في الأخلاقيات وفضل الأفلاطونية سابق ولاحق ، وفضل أرسطو غير منكور .

على أننا نريد أن نعلق ان هذه التحفظات لا تنال بحال من قيمة الكتاب ، فان قيمته كبيرة . يتجلى فيه علم غزير معروض بأسلوب رصين رشيق ، وتنساب فيه حرارة روحية صادقة تنفذ الى نفس القارىء فتسمو بها الى الخير . فهو خدمة جليلة علمية وخلقية . وإنه ليلذ لنا أن نهنىء صديقنا الدكتور عثمان أمين مخلصين بهذا التوفيق الجميل .

يوسف كرم

Muhammad Abduh

Essai sur ses idées philosophiques et religieuses

par Dr. Osman Amin

طبع بمطبعة مصر بالقاهرة وبه مقدمة لمعالي مصطفى عبد الرازق باشا

هذا الكتاب ألفه بالفرنسية الدكتور عثمان أمين المدرس بكلية الآداب ، وهو بحث مستفيض في آراء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الفلسفية والدينية والاجتماعية وقد تقدم به المؤلف لنيل اجازة الدكتوراة فظفر بها مع مرتبة الشرف الممتازة .

ولقد أنصف الأستاذ المؤلف في وضع هذا الكتاب بالفرنسية ليعرّف علماءنا ومصلحينا وقادة الرأي فينا الى الأجانب وليلقي ضوءًا على نواحي النهضة في بلادنا .

وسنعود في فرصة أخرى الى توفية هذا الكتاب القيم حقه من الدرس والتقدير

الانجليز كما عرفتهم

مطالعات ومشاهدات عن المجتمع البريطاني

تأليف أمين المميز — مطبعة السكك الحديدية للحكومة العراقية — ٣٣٢ صفحة من القطع الكبير —
الطبعة الاولى سنة ١٩٤٤

من السنن المتبعة في السلك السياسي العراقي أن يؤلف الموظف فيه رسالة عن الأمة التي انتدب للعمل في بلادها وان يكون تأليفه بلغة الأمة نفسها وهذه سنَّة محمودة فقد كان من ثمراتها هذا الكتاب النفيس الذي ألفه الأستاذ أمين المميز وهو من كبار رجال السلك السياسي العراقي . ألفه لما كان يعمل في المفوضية العراقية في لندن ثم ترجمه الى العربية ببعض التصرف ووضع مقدمة الكتاب فخامة السيد توفيق السويدي بك وفخامته من خيار رجال العراق علماً وفضلاً وله منزلة ممتازة في علمه وفضله وحكمه . ولقد ولي رياسة الوزارة العراقية عدة مرات بعد ما كان من كبار رجال الحقوق . وقد أثنى فخامته على المؤلف بما هو أهل له وأشار الى فائدة الكتاب وفائدة التعارف التي يحدثها بين العرب والانجليز فقال :

« وإذا تعرَّف الجمهور العراقي الى صديقه وحليفه الجمهور الانجليزي يكون من السهل تقوية أواصر المودة بينهما وخدمة المصالح المشتركة التي تأسست لحسن الحظ وتوطدت أسسها لا بين العراق وحده وبريطانيا بل بين العالم العربي وبينها . وفي ذلك ما لا يقدَّر من منافع تعود بالخير العميم على الجميع » .

والمؤلف الفاضل يضرب على هذه النغمة بجلاء في خاتمة مقدمته فيقول :

« نحن مقبلون على عالم جديد وحياة جديدة ستختلف في كثير من النواحي عن الحياة التي اعتادها عالمنا السالف . وعلينا ان نعد العدة ونتنكب السلاح لمواجهة هذا العالم الجديد. وحريٌّ بنا نحن معاشر العرب أن ندرك أننا أقرب بتفكيرنا وآمالنا ومطامحنا ومثلنا العليا وطرق حياتنا ونظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الى العالم الانجلوسكسوني من أية مجموعة دولية أخرى . فعلينا إذن أن نتفاهم ونتعاون ونتبادل الرأي والشعور والمصلحة معه بالدرجة الأولى ان أردنا أن نحقق مهمتنا ونؤمن خيرنا وسعادتنا ونحتل المركز اللائق بنا بين مجموعات الشعوب العالمية »

وبعد ذلك بحث المؤلف عن التشابه بين العراقي والانجليزي فقال :« فلو قارنا بين طبيعة الفرد العراقي وطبيعة الفرد الانجليزي لرأينا الفرق البين بينهما ، فتباين الأحوال الجوية والمناخ القاري ذي الصيف الحار جداً والشتاء البارد جداً جعل من العراقي فرداً سريع

التأثر والانفعال تسيره العاطفة في كثير من الأحيان . أما الانجليزي فهو على العكس من ذلك بارد الطبع بطيء التأثر الى درجة انه يوصف بالبلادة » . ثم قارن بين العراقيين والانجليز في تعلم اللغات واتقانها في صفحتي ١٧ و ١٨ ولم يفته أن يظهر للعرب فضلاً على الانجليز في اقتباسهم العلم عن العرب في صفحة ١٤ . ولما تكلم عن مشكلات الانجليز أشار الى الشكلة الفلسطينية في صفحتي ٢١٠ و ٢١١ فقال : — « وفي هذه الامبراطورية التي أغدقنا عليها آيات الوصف والاعجاب ثلاث قضايا معقدة ما زالت أعقد من ذنب الضب ولم تتوصل أدمغة الساسة الى ايجاد حل لها وهذه القضايا هي : القضية الفلسطينية ، والقضية الارلندية ، والقضية الهندية . فالقضية الأولى نشأت منذ أن استحوذت بريطانيا على الأراضي المقدسة بحجة « الانتداب » تخلقت ما يسمى بالقضية الفلسطينية تلك القضية التي أصبحت الآن ليست قضية فلسطينية وانما قضية بين العرب والصهيونيين ، بين الاسلام واليهود ، بين انجلترا وأميركا ، بين الشرق والغرب . وبكلام أوضح بين الحق والباطل . والبحث فيها خارج عن نطاق موضوعنا هذا والأفضل أن نترك أمرها لغيرنا » .

والكتاب مقسم الى أربعة فصول استوفى المؤلف البحث فيها عن الرجل الانجليزي والمرأة الانجليزية وحياة الانجليز السياسية والاجتماعية . وقد أسهب في ذلك كثيراً . واذا شئنا الاسهاب في سرد ما امتاز بهِ الكتاب من معارف ومعلومات طارفة وتليدة احتجنا لمساحة لا تتسع لنا هنا ولوقت كبير . فنقول اجمالاً ان للكتاب لذة كتب السياحة والوصف وهو مع هذا كتاب له روح التحقيق والاستقصاء وفيه حرية متسعة في نقد ما رآه خليقاً بالنقد والتنبيه الى ما فيه فائدة لبريطانيا الحليفة وللبلاد العربية جملة وتفصيلاً . وقد استحق المؤلف الثناء والاعجاب .

محيي الدين رضا

زمزم الغريقة

لمحمد كاظم المحرر بالاهرام — ١١١ صفحة من القطع المتوسط — طبع بدار احياء الكتب العربية بمصر

يمتاز هذا الكتاب بميزتين : كثرة التحقيق وحلاوة الأسلوب . أما التحقيق فليس غريباً على مؤلفه الفاضل فقد عرفته الصحافة الرفيعة كيف يتحرى الدقة في الأخبار وكيف يكون أميناً عليها . وأما الأسلوب فليس فيه تكلف ولا اغراب . ولكنه عذب ينساب في خلال الكتاب انسياب الجدول المترقرق .

والمؤلف وصّاف بارع يغريك حديثه من سطر الى سطر ومن صفحة الى أخرى حتى تأتي على الكتاب كله في جلسة واحدة . فهو بارع حين يصف البحر الهادىء حيناً والمضطر

حيناً آخر ، وهو بارع حين يصف زمزم وقد تلقفتها أمواج المحيط . وهو بارع حين يصوّر لك حياة الظلام في العنابر . . . وهو بارع حين يعود بالمعتقلين الى وطنهم العزيز لينشقوا نسمات الحرية من جديد.

لقد ذهبت زمزم الى قضائها المحتوم وبقي كتاب « زمزم الغريقة » أثراً باقياً لها . فنهنىء المؤلف على كتابه ، ونشكر دار احياء الكتب العربية على معونتها الصادقة لنشر الآداب والعلوم .

١ – الحياة الروحية في الاسلام

للدكتور محمد مصطفى حلمي مدرس الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول

١٦٤ صفحة من القطع الوسط — طبع بدار احياء الكتب العربية

٢ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة

للدكتور أبو العلا عفيفي أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول ،

١٢٥ صفحة من القطع الوسط — طبع بدار احياء الكتب العربية

فكرةٌ موفقة ، ونهضةٌ مباركة ، فأما الفكرة فهي قيام الجمعية الفلسفية المصرية بما أخذته على نفسها من إصدار تلك السلسلة القيمة من المؤلفات يشرف على إصدارها عالمان جليلان هما الدكتور علي عبد الواحد وافي رئيس الجمعية ، والدكتور عثمان أمين سكرتيرها العام ، ولعلمهما الواسع وخلقهما النبيل أثر ملحوظ في نجاح تلك الفكرة ... ولدار إحياء الكتب العربية التي أخذت على عاتقها إخراج هذه السلسلة فضل لا يجحد في تدعيم تلك الفكرة .

وأما النهضة المباركة فمظهرها في هذه الحيوية المتدفقة في آثار تلك الجمعية ، فلقد أخرجت خمسة مؤلفات قيمة ولمّا تمض على تكوينها بضعة أشهر ، وأمامها سلسلة من المؤلفات النفيسة قدّمها مؤلفوها اليها لتتابع إخراجها.

ولقد شاءت المصادفة أن يخرج من مؤلفات هذه الجمعية كتابان متتاليان يبحثان في عالم واحد هو عالم الروحية الاسلامية .

وانها لفكرةٌ جميلة أن يصدر هذان الكتابان ، وقد هدّت المادية أعصاب العالم وقوّضت أركانه وزعزعت إيمانه حرب طاحنة غلبت فيها شهوات الجسد وأطماعه روح الخير في الناس فاندفعوا وراء أطماعهم وماديتهم يصطرعون ويهدمون ويحطمون حتى أنفسهم لا يردعهم هاتف روحي ولا يعصمهم مثلٌ من أمثلة الانسانية المنجردة عن أطماعها .

فأما الكتاب الأول فقد تناول فيه مؤلفه الفاضل الحياة الروحية في الاسلام تلك الحياة « التي يخضع فيها الانسان لألوان مختلفة من مجاهدة النفس وكشف حجاب الحس ، وتصفية القلب وتنقيته من أدران الشهوة والهوى ، وقطع العلائق المادية التي تفسد عليه صلته بربه ، وصلته بأشباهه ، ثم هي بعد هذا كله تأمُّل في الكون ، ومشاهدة لمبدع الكون مشاهدة سبيلها الغناء عن النفس البشرية ، وقوامها البقاء في الذات الالهية ، والاتحاد بالحقيقة العلية ، والتحقق بمعرفتها معرفة يقينية لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها » . وبيّن كيف نشأت هذه الحياة من تحنث النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم تناول حياة محمد النفسية وأحواله وأقواله في الزهد والتقشف مما كان له أثر في حياة أصحابه والتابعين له .

وانتقل بعد ذلك الى الكلام على مصادر الحياة الروحية الاسلامية ، وناقش كل مصدر ، وهو يميل الى مسايرة الحياة العربية في الجاهلية عند الكشف عن مصدر الروحية بحيث يمكن القول بأن حياة الزهاد والصوفية في الاسلام إنما هي استمرار لهذه الحياة الخشنة التي كان يحياها العرب الجاهليون ، وهو بهذا يرى ان بذور الروحية الاسلامية نشأت في الجزيرة العربية ولم تتلق أصولها من مصادر هندية أو فارسية أو نصرانية أو يونانية . . . ثم تناول بعد ذلك زهاد القرنين الاولين للهجرة وخصائص الحياة الروحية للزهاد وعرض لناحيتين من الزهد في حياة زاهدين : الحسن البصري تمثيلاً للزهد مع الخوف ، ورابعة العدوية تمثيلاً للزهد مع الحب . ثم تكلم عن الصوفية والتصوف وعن معناهما . ثم انتقل من ذلك الى خصائص التصوف في القرنين الثالث والرابع والصراع الذي قام بين الفقهاء والصوفية ومذهب الحلاَّج ، حتى أشرف على القرن الخامس فتناول حياة الغزالي الروحية وتطرق البحث الى علم الكلام والفلسفة وتصنيف العلوم والمعرفة والسعادة عند الغزالي ، ثم تناول خصائص التصوف في القرنين السادس والسابع وتكلم عن رجاله السهروردي وابن عربي والفارض — وللمؤلف دراسة واسعة عن هذا الشاعر الالهي لم نسعد بقراءتها بعد — وابن سبعين حتى انتهى به البحث الى التصوف بعد القرن السابع والى ما أصابه بعد ذلك من تدهور وانحطاط وبذلك تمت الناحية التاريخية من هذا البحث القيم ، ولعلَّ الوقت لا يطول على اخراج القسم الثاني من هذا البحث في الناحية الموضوعية

• • •

أما الكتاب الثاني الذي وضعه الدكتور ابو العلا عفيفي فقد قصره على الكلام على

الملامتية والصوفية وأهل الفتوة . والملامتية فرقة من فرق الصوفية ظهرت بمدينة نيسابور بخراسان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة تقوم فكرتها على اتهام النفس ولومها في كل ما يصدر منها من قول أو عمل ومحاربة الرياء . واذا كانت غاية الصوفية — في مقارنة السهروردي — الفناء في الله ورؤية الخلق بعين الزوال لا تعنيهم النفس ولا اخلاصها ولا الخلق وآراؤهم لأن سلطان الحقيقة يستولي عليهم فلا يشاهدون عيناً ولا رسماً . أما الملامتية فأهل صحو وإدراك يرون ان الغاية من الطريق الاخلاص في الأعمال وتحريرها من معاني الرياء . وأما الفتوَّة فاسم أطلق على مجموعة من الفضائل وكانت في الصدر الأول من الاسلام أمراً فرديًّا ولم يعرف لها نظام اجتماعي الاَّ في عصر متأخر . . . وقد تناول المؤلف في القسم الأول من كتابه مذهب الملامتية ونشأته التاريخية والصلة بين تعاليمها وتعاليم الصوفية وأهل الفتوة كما تناول أصولها وفلسفتها في النفس. وانتقل في القسم الثاني الى رسالة الملامتية التي ألفها أبو عبد الرحمن السلمي وقد مهد لها بدراسة مستفيضة عن مؤلفها ومنزلته من تاريخ التصوف وتلاميذه وتصانيفه .

• • •

وختام القول ان المؤلفين الفاضلين قد أحسنا صنعاً باخراج هاتين الدراستين النفيستين في الروحية الاسلامية في هذا الزمن الذي يجب ان تقوى فيه عوامل الخير ومحاربة النفس. وقد أحسنت الجمعية الفلسفية في اصدارها هاتين الحلقتين موصولتين . وهو جهد مشكور

حسن كامل الصيرفي

١

مشكلات الاطفال اليومية

للدكتور دجلاس توم وترجمة الاستاذ اسحاق رمزي — صفحاته ٣٠٤ صفحة
من الحجم الكبير — طبع بدار المعارف بمصر

كتاب عملي يعرض كافة المسائل التي تعرض لسلوك الأطفال وتربيتهم وهو يهمّ الآباء والامهات والأطباء والمعلمين الاطلاع عليه لما فيه من الفوائد والبحوث السيكولوجية وما فيه من عرض وتحليل لأسس الصحة العقلية والنفسية .

وسنعود في عددٍ تالٍ الى دراسة هذا المؤلف النفيس

١ — شخصيات ومذاهب فلسفية

للدكتور عثمان أمين — ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط — دار احياء الكتب العربية بمصر

العقل بطبعه ميّال الى المعرفة طموح الى زيادتها ، لا يقنع بكشفٍ ما ، بل يشرئب الى المزيد ويتطلع دواماً الى آفاق جديدة . هذا ما تمليه علينا الطبيعة الانسانية الصحيحة التي تأبى إلاّ أن تستغلّ كل عضوٍ من أعضاء الجسم فيما خلق له وتسرف في هذا الاستغلال مخافة أن يتراكم عليه الصدأ ويبلى بطول الوقت . ولن يجد العقل غذاءً دسماً يملأ زواياه وينتشر في خلاياه كالفلسفة . فالفلسفة غذاء ذهنيّ شهي كلما هضمته زاد شوقك إلى سواه ، وما أنت بقانع مهما اتسع عقلك له .

ويطيب للعقل أن يسبح فيما وراء الطبيعة محاولاً أن يتفهّم كنهها ويدرك ما خفي عنه منها ويسبر غورها ويتفرّس في أسرارها وخباياها لعله يوفق الى استجلاء ما غمض عليه وتعليل ما أشكل على الحواس . وما الفلسفة إلاّ حب المعرفة والسعي لادراكها بأساليب ومناهج شتى وتتوسل الى ذلك بالمنطق مرة ، وبالحواس أخرى ، وبالاستنتاج مرة ثالثة .

والفيلسوف بطبعه لا يمقت إلاّ كل مختزن للمعرفة ضنين بها على الآخرين ، فما الأثرة من سجايا الفلاسفة ، وإنما الايثار والمشاركة . لذلك رأى الدكتوران علي عبد الواحد وافي وعثمان أمين أن يصدرا سلسلة من المؤلفات الفلسفية يشرف عليها من علٍ معالي الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ليستطيع المبتدئون في الفلسفة أن يشقوا طريقهم بين خضمها وليلمّ الذين يتهيبون الفلسفة بما يهيء لهم سبيل الاقبال على مناهلها وورود ينابيعها .

وأصدر صديقنا الدكتور عثمان أمين أستاذ تاريخ الفلسفة في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول كتاباً يجمع الى سهولة التعبير عمق المادة ودقة الرواية وإصالة الفكر وجمال العرض . وتناول في « شخصيات ومذاهب فلسفية » طائفة من الفلاسفة ، سرد سيرتهم وفصّل مناهجهم ودفع عن بعضهم ما لحقهم من إتهامات . واختار أن يعرض فلاسفة من اليونان ، فتحدث عن السوفسطائيين الجدليين الذين يتاجرون بالكلام وبالمنطق ، وعن سقراط الأخلاقيّ الشجاع الذي أبى أن يهرب من السجن لينقذ حياته وآثر الموت الشريف على الحياة الذليلة . ثم عرض فلاسفة من الاسلام فتحدّث عن الفارابي الذي بدأ شبابه متفلسفاً وقضى كهولته متفنناً وختم حياته متصوّفاً ، وعن ابن سينا الذي تقلد مناصب الوزارة والرياسة ولم يسلم من جناية السياسة عليه ، وعن ابن رشد النابغة الذي كتب نحواً من عشرة آلاف ورقة وتبحر في الشروح والبحوث الدينية والفلسفية وكان بعيد الأثر في فلسفة الغرب . ثم تناول الدكتور عثمان أمين فيلسوفين أوربيين هما ديكارت زعيم المدرسة العقلية وصاحب نظرية الشك في كل شيء ، وهيوم التجريبيّ الاختباري الناقد :

فالكتاب لم يقتصر على عصر معين أو فيلسوف معين ، بل وسع دائرة بحثه ليستطيع القارىء أن يلم بمدارس فلسفية منوعة وأساليب متباينة . فقرأنا فيه عن فلاسفة ماديين وعن آخرين أخلاقيين وغيرهم عقليين وعمليين ونظريين ، وسمعنا عن اليونان والاسلام وفرنسا وانجلترا ، وما كل هذا الجهد وكل هذا العناء الاّ ليتذوق القارىء حلاوة الفلسفة وليشارك الفلاسفة فيما يهدفون اليه من حب للمعرفة وسعي حثيث لادراكها ومتعة في النفاذ الى أعماقها السحيقة .

ولم يكتف الدكتور عثمان أمين بسرد النظريات الفلسفية مجردة من المشهيات ، بل لجأ الى مدّ كتابه بطائفة من الحوادث الطريفة عن كل فيلسوف . فقال عن ابن سينا انه كان بارعاً في الطب النفساني ، فجيء اليه برجل أصيب بالماليخوليا ليعالجه . وكانت العلة قد اشتدت على المريض حتى سيطر عليه الاعتقاد انه أصبح بقرة ، فشرع يقلد الابقار في خوارها ويشرب معها ممتنعاً عن مؤاكلة بني الانسان . فقال ابن سينا للمريض : « هلمّ نذبحك ما دمت أصبحت بقرة » فأجاب المريض : « افعل ما تشاء » فأمر ابن سينا بأن يقيد المريض بحبل وأن يلقى على الارض ويؤتى بسكين حاد . فلما جيء بالسكين ، أهوى به على المريض كأنه يريد ذبحه . فلما قرب من نحره قال له : « ما بال هذه البقرة هزيلة ! انها لا تصلح للذبح » فقال المريض : « انها تصلح للذبح فاذبح » ولكن ابن سينا أبى أن يذبحها حتى تمتلىء لحماً وشحماً . وأشار على « البقرة » أن تأكل كثيراً وتشرب كما يأكل الناس ويشربون . فسأل المريض : « أوتذبحني إن فعلت وأصبحت سميناً ؟ » فأجاب بالايجاب . وأخذ المريض يأكل ويشرب كثيراً ويعاشر الآدميين حتى برىء من علته وردّ اليه صوابه ! .

ولعل أجمل ما في كتاب « شخصيات ومذاهب فلسفية » الفصل الذي أفرده الدكتور عثمان أمين لديكارت ، فهذا رجل بدأ نهجه الفلسفي بالشك في كل شيء حتى في ذاته ، وانتهى باليقين القائم على دعائم لا تقبل النقض ولا تتسرّب اليها الريب .

أما فيما يختص بترجمة المصطلحات الفلسفية ، فالحق أن المؤلف أجاد كل الاجادة في اختيارها ، غير اني كنت أؤثر أن يستعمل كلمة « الكائن » بدلاً من « الوجود » لتؤدي معنى Being وكلمة « الايحاء » بدلاً من « الحدس » لتؤدي معنى Intuition وكلمة « الاستنتاج » بدلاً من « الاستنباط » لتؤدي معنى Deduction .

وكتاب « شخصيات ومذاهب فلسفية » نموذج موفق للفلسفة المبسطة . والدكتور عثمان أمين نموذج صادق للشباب الوثاب . وقد جال من قبل جولات موفقة في رسائله « ديكارت » و « محمد عبده » و « الفلسفة الرواقية » وما زالت جعبته عامرة يمد المجلات بما يتدفق من فيضها .

٢ — ابرهيم الكاتب

تاليف ابرهيم عبد القادر المازني — ٣٠٨ ص . من الحجم الكبير — مكتبة مصر بالفجالة

ليس من ينكر على الكاتب الكبير الأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني فضله على الأدب العربي وهو الذي سخر قلمه في خدمة الضاد زمناً يربو على ربع قرن . فهو كاتب خفيف الظل ، سهل العبارة ، دقيق التصوير ، صادق الرواية ، صريح حتى ليفتح لك قلبه على مصراعيه في أول لقاء . فهو يقبض على أزمة اللغة ويملك نواصيها ويتحكم في بيانها ، فيخلق من الكلمات معانٍ دقيقة معبرة ، ويبعث من مُوَات اللفظ شخوصاً تراهم رأي العين البصيرة النافذة التي لا تترك شاردة ولا واردة ، ولا تغيب عنها حركة مهما قلَّ شأنها ، ولا تهمل تعبيراً من تعبيرات الوجه أو حركة من حركات الجسم الاّ رصدته وأحسنت تبيانه .

والأستاذ المازني رجل حياة ، شغوف بالواقع ، عزوف عن المغالاة والمبالغة . فتجيء جميع كتاباته طبيعية لا تصنع فيها ولا ادعاء ، تعكس صوراً لا تنقصها الحياة ولا تعوزها الصراحة . على هذا المنوال عوّدنا الصديق الكبير في كل ما تخط يده ، فما فتيء يرجع إلى الدنيا في كل ما يكتب ، يستقي منها مادته ويصوغها في قوالب بعيدة عن التحيز او المجافاة . ومن يقرأ كتبه « ابرهيم الكاتب » و « ابرهيم الثاني » و « عود على بدء » و و . الخ يرى هذا جليًّا .

ومنذ نحو خمسة عشر عاماً خرج الأستاذ المازني على العالم العربي بكتابه الرائع « ابرهيم الكاتب » الذي أودعه عصارة قلبه ونفسه وفكره ، فصوَّر فيه حوادث أغلب الظن أنها عرضت له وكان هو بطلها أو ضحيتها على الأصح . وسلك في كتابته مسلكاً يدفع السأم عن القارىء ويطرد الملال عنه . « فابرهيم الكاتب » قصة كثيرة الفصول ، بل هي في الحق مجموعة قصص شُدَّت الى بعضها البعض بحبكة قصصية بارعة خلقت منها رواية تامة الفصول تجمع الى صدق التصوير جمال المعاني وبساطة الحياة ورصانة الأسلوب ، وكيف لا يكون هذا واللغة قد لانت للأستاذ المازني وطاوعته وأسلمته قيادها ؟ .

واليوم يطلع علينا الاستاذ الكبير بالطبعة الثانية من ذاك الكتاب ، لم يدخل عليها تعديلاً ما لأنه رأى أن روايته أصبحت من الآثار الأدبية المعتمدة التي لا يحق له أن يتناولها بالتعديل أو التحريف . ولا تزال الرواية تحتفظ بجدّتها ، ولا تزال شخوصها تتمتع بصحة وارفة ، فلم يشخ « ابرهيم » وهو البطل ؛ ولم يَعْلُ المشيب هامة « شوشو » ولم تنل الأيام من « الشيخ علي » ولم يمرض « الدكتور محمود » ولم تتخلَّ الطفلة « زوزو » عن طفولتها ، وإنما استطاعت الرواية لفرط جودتها الابقاء على رونقها والاحتفاظ بالحياة تدبّ في أوصالها.

وديع فلسطين

باب الأخبار العلمية

العوامل الاقتصادية في الصناعات الكيميائية

ألقى الأستاذ الدكتور أحمد زكي بك المدير العام لمصلحة الكيمياء محاضرة عن « العوامل الاقتصادية في الصناعات الكيميائية » قال فيها : ان صناعة حامض الكبريتيك في مصر مهددة أكبر تهديد بعد الحرب إذا لم تكن لها حماية . ومن أسباب ذلك ان خاماتها (الكبريت أو البيريت أو الجبس) لم تثبت البحوث الجيولوجية القليلة وجودها في مصر ، كما أن قلة الانتاج المصري بالنسبة لنظائره في الخارج يزيد في ثمن انتاج الطن بمقارنته الى الثمن العالمي .

صناعة الورق

وقال الدكتور زكي بك ان صناعة الورق في مصر تنهض على قش الأرز . وهذا لا ينتج إلاّ الصنف الخسيس من الورق . فلا بد لهذه الصناعة من أن تتطلع الى خامات مصرية أخرى كمصاصة القصب ونبات البردي إن أمكن استنباته في مصر . ولا بد كذلك من تجديد الصناعة حتى تتحمل منافسة الخارج ولا مناص من مضاعفة الانتاج تخفيضاً لثمن الورق .

صناعة الكحول

أما صناعة الكحول ، فانها تعتمد في الأغلب على الميلاس (العسل الأسود) المتخلف من صناعة السكر . وقد يدخل في هذه الصناعة بعد الحرب عامل منافسة جديد شديد . فلسوف يتمخض السلم عن صنع الكحول من نشارة الخشب ومن الحطب المتخلف من قطع الشجر في الغابات . والولايات المتحدة تنتج من ذلك ٣٠ مليون طن يمكن تحويل نسبة كبيرة منه الى سكر فالى كحول ، وقد تمّ هذا فعلاً . ويقدر ثمن الكحول الناتج بنحو نصف ثمنه قبل الحرب وهذا تحول كبير . وتستخدم الولايات المتحدة الآن نحو أربع مئة مليون جالون من الكحول في صناعة المطاط الصناعي .

صناعة الصودا

وقال المحاضر ان انتاج العالم من الصودا بلغ في عام ١٩٣٧ نحو ١٧ مليون طن وان خامتها العالمية العظمى هي ملح الطعام (كلورور الصوديوم) . وثمة طريقتان متنافستان لانتاج الصودا أقدمهما طريقة

سلفاي ، وتعتمد على النوشادر والجير وأحدثهما طريقة الكهرباء وتعتمد على قوة كهربائية رخيصة . أما في مصر ، فان الصودا تستخرج بطريقة بدائية من وادي النطرون فهي والحال كذلك لا يمكن أن تفي إلاّ بالقليل من حاجة البلاد .

المواد الصناعية

ثم تحدث المحاضر عن المواد الصناعية Synthetics فقال انها تستخرج من مواد كيميائية أهم مصدر لها قطران الفحم وقد تسببت هذه الصناعة الجديدة في تغير الصورة الاقتصادية للصناعات الكيميائية تغيراً كبيراً . ودلل على ذلك بصناعة النيلج لان تحضير هذه المادة من قطران الفحم قضى على صناعة النيلج في الهند ومصدرها الشجر الزروع . وأشار الى الحرير الصناعي وقد بلغ الانتاج العالمي منه عام ١٩٤٠ نحو مليون ومئتي الف طن ، وكاد يكون معدوماً في الحرب الماضية . أما اللدائن أو العجائن الكيميائية Plastics فكان ينتج منها في عام ١٩٢٠ نحو خمسة ملايين من الأرطال ، فأصبح انتاجها عام ١٩٤٠ نحواً من مئتي مليون رطل .

وثمة صناعة المطاط الصناعي الذي ينتج اليوم من الكحول ومن زيت البترول بعد تحطيمه Cracking . والمطاط الصناعي يمتاز كثيراً عن الطبيعي فضلاً عن ان الصانع يستطيع أن يتحكم في خواصه على الوجه الذي يبغي .

وتحدّث زكي بك عن البنسلين الذي تنفق على صناعته اليوم مئات الألوف من الجنيهات . فقال : متى اهتدى البحث الكيميائي قريباً الى معرفة تركيبه وصناعته من مواده الأولية (مثل قطران الفحم أو غيره) ألغيت المصانع التي أنشئت الآن وضاعت جميع النفقات التي صرفت سدىً . وعندئذٍ ينخفض ثمن البنسلين الى ثمن الاسبرين ويصبح في متناول الفقير قبل الغني .

المطاط الصناعي

تنبأ الدكتور جود فري كولدويل Godfrey Caldwell بشركة المطاط الأميركية في ولاية ساوث كارولينا بأن مجال استخدام المطاط الصناعي بعد الحرب سيكون واسعاً جدّاً . وقال ان الخبرة التي كسبها علماء الكيمياء من انتاج المطاط الصناعي في السنوات الثلاث الأخيرة تزيد كثيراً على الخبرة التي كسبوها من انتاج المطاط الطبيعي في ثلاثين سنة . وقال إن البوتيل Butyl وهو أحدث أنواع المطاط الصناعي أثبت انه يمتاز بكثير عن المطاط الطبيعي ولاسيما في صناعة اطارات السيارات الداخلية ، وذلك لانه يقاوم الحرارة العالية ويقاوم عوامل التمزّق ويقاوم رطوبة الجو .

أشعة اكس في الحرب

أذاعت مصلحة الانتاج الحربي الاميركية أن حاجات الحرب أسفرت عن استنباط استعمالات جديدة وأنواع جديدة منوعة من آلات رنتجن (إكس) في ميادين الطب والصناعة .

ولم تكن أشعة إكس تستخدم في الكشف عن المواد الصناعية أو المنتجات الآلية قبل الحرب ، على الرغم من أن هذه الأساليب كانت معروفة من ثلاثين عاماً . ويحتاج إنتاج معظم مواد الحرب تقريباً الى الكشف عليها بوساطة أشعة إكس ، فقد ساهمت في الحرب بقسط كبير . واستخدمت آلات الأشعة من أوزان مختلفة تتفاوت بين بضعة أرطال وعدد من الأطنان وتتفاوت قوة التيار الكهربائي المستخدم فيها بين أربعة آلاف ومليونين من الفولطات .

ومن المنتجات التي تجتاز اختبار أشعة اكس يومياً للتثبت من صلاحيتها ما يلي : قطع الآلات وألواح الفولاذ اللازمة لبناء البوارج ورصاص البنادق والقنابل من عيار عشرة بوصات . وفائدة هذا الاختبار التثبت من أن التركيب الداخلي لهذه المواد خالٍ من العيوب . ويلاحظ ان العينات التي تجري عليها هذه الاختبارات لا تتعرّض لتلفٍ أو فساد بسبب أشعة إكس .

ترقية زراعة القطن

نشرت جريدة « وول ستريت جورنال » أن العلماء الاميركيين الذين يتوفرون على شؤون القطن توصلوا إلى تحسين حالة القطن واستحداث أساليب جديدة في زراعته وصناعته من شأنها أن تكسب القطن الطبيعي بعض الصفات الجيدة المتوفرة في منافسة القطن الصناعي ، مع احتفاظ نبات القطن في الوقت عينه بالمميزات التي يتفرد بها . وسيؤدي هذا إلى كشف مئات من الاستعمالات الجديدة لمنسوجات القطن .

علماء ألمانيا يحاكمون كمجرمي حرب

جاء في برقية لاحدى وكالات الانباء الاميركية من لندن ان لجنة محاكمة مجرمي الحرب المؤلفة من ممثلي الامم المتحدة تبحث موضوع ادراج أسماء العلماء والأطباء الالمانيين البارزين في قائمة مجرمي الحرب تمهيداً لمحاكمتهم لأنهم تسببوا في وفاة ألوف من الرجال والنساء بما أجروه عليهم من تجارب علمية .

وديع فلسطين

موقد كهربي

اخترع موقد كهربي للطبخ ، فيه مصباح متألق ولوحة زجاجية مربعة ذات إطار لفحص الطعام . ويحتوي على ساعة اعتيادية واخرى مثل ساعات السباق .

ثم تقصد ربة البيت إلى خزانة الأغذية المثلجة حيث تنتقي العشاء المرغوب من الرفوف المحتوية على الفطائر المبردة ، غير المخبوزة ، واللحمة المفرومة والليمون الهندي والسرطان وفليتو السمك و الدجاج والمخللات ، وفواكه المنطقة الحارة واللحوم وطيور الصيد البرية

وتتناول من رف آخر علبة قشدة فتفتحها لتعرّض مشتملاتها السائلة للهواء فتتحوّل قشدة مخفوقة . ثم تجفف البطاطس المهروسة ، وكذلك يوضع البن المسحوق أقراصاً صغيرة تلف بورق السيلوفان . وهذه يمكن جعلها قهوة تشرب حالاً باسقاطها في الماء الساخن .

ثم تجيء ربة الدار فتجلس معك الى مائدة مغطاة بنسيج لا تؤثر فيه النار ومرصعة بصحون خفيفة من العجائن الكيميائية ، مشفوعة بشوك وملاعق عجينية وسكاكين بمقابض منها أيضاً .

وبعد انتهاء العشاء ، يحل دور الترويح عن النفس ، فتسمع اسطوانات ، مطربة هي بكرات سلك ممغنط ، وكل بكرة منها ملفوف عليها سلك يزيد طوله على ميلين . وتحتوي كل واحدة منها على برنامج للغناء يُلقى في ساعة بلا انقطاع .

وتستعمل الآن بدل هذه الأجهزة والآلات التي وصفناها ، مئات من الأجهزة والمخترعات الصغيرة التي هي من ثمار مباحث زمن الحرب الحالية . وقد تمّ اتقانها لتنافس غيرها وتفوقها في أسواق العالم . وبعضها مؤسس على مبادىء الرائد اللاسلكي . ولا جرم أن العلم سيثمر ثمرات عجيبة جداً حينما تنشر ألوية السلام على العالم .

الراديو المبصر أو المصور

وقد يعروك الدهش إذ ترى ربة الدار ترحب بمقدمك وهي واقفة في مطبخها تطهي طعامها ، وذلك الترحيب يصدر عن طريق جهاز لنقل الصوت يركب في حجرة تحت المطبخ خصص أصلاً لنقل ضوضاء الأطفال حينما يستيقظون في حجرتهم فتسمعهم أمهم . وحينما يستقر بك المقام ، في دار مضيفتك ، ترجوك رفع التكليف ثم تصارحك القول بأنها قد راقبت حضورك من قبل بلوغك مسكنها ، وذلك عن طريق مطبخها بوساطة سنار الراديو المبصر المركب في واجهة البيت وهو من المخترعات الغالية القيمة حتى الآن .

عوض جندي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد السابع بعد المائة

١٧٧ العلم والفلسفة في عناق واحد : فؤاد صرّوف

١٨٣ التاريخ عمل انساني : اسماعيل مظهر

١٨٩ الاجهاد العصبي

١٩٠ مقتل مالك بن نويرة وموقف خالد بن الوليد : أحمد محمد شاكر

٢٠٢ التغذية الصحيحة : فهمي عطا الله

٢٠٣ مسجد المدرسة السامرية بالشاغور بدمشق : السيد محمد رجب

٢١٠ سلالة تتهيأ للانقراض

٢١١ قارئي بعد حين لا تضحك : عن هيني شاعر الحب والجمال والحرية

٢١٤ أهل الذمة في العصر الفاطمي : عطية مصطفى مشرفة

٢٢٢ نقل الدم وشفاء الامراض

٢٢٣ القلب وأمراضه : الدكتور عبده رزق

٢٣١ القديم وأثره في الحديث

٢٣٥ أساطير القدماء ودلالتها

٢٤٠ النظام الحزبي في بريطانيا : ايليا نعمان حكيم

٢٤٤ من أنواع النبات الطبي : محمود مصطفى الدمياطي بك

---

٢٤٦ باب المراسلة والمناظرة * الارواح : نقولا الحداد

٢٤٩ مكتبة المقتطف * الفلسفة الرواقية : يوسف كرم . محمد عبده . الانجليز كما عرفتهم : محيي الدين رضا . زمزم الغريقة . ١ ـ الحياة الروحية في الاسلام ٢ ـ الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : حسن كامل الصيرفي . مشكلات الاطفال اليومية . ١ ـ شخصيات ومذاهب فلسفية . ٢ ـ ابرهيم الكاتب : وديع فلسطين

٢٦٠ باب الاخبار العلمية * العوامل الاقتصادية في الصناعات الكيماوية . صناعة الورق . صناعة الكحول . المواد الصناعية . المطاط الصناعي . أشعة أكس في الحرب . ترقية زراعة القطن . علماء المانيا يحاكمون كمجرمي حرب : وديع فلسطين . موقد كهربي . الراديو المبصر او المصور : عوض جندي